خصائص الدعوة المحمدية

بقلم

محمد نجيب المطيعي

تصدير بقلم السيد اللواء محمد صالح حرب

كتب السيد اللواء محمد صالح حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين خطابا إلى الأستاذ علي الجبلاطي ، وكان قد عرض عليه ملازم الكتاب لتعرف رأى سيادته فيه ، باعتباره رجلا مجاهداً محارباً مسلماً ، عالماً بتاريخ أبطال الإسلام وسيرهم ، فقال سيادته :

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى الأستاذ الكبير ، على الجبلاطى

عليك تحية من عند الله مباركة طيبة وسلام - وبعد

جاءنى كتابُ الأستاذِ البحَّاثةِ محمد نجيب المطيعى عن سيفِ الله خالد بن الوليد ، وخالدٌ كما قال عن نفْسه : (فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمتُ يعدِلُ بى أحداً من أصحابه فيما حَزَبه) فوجدتُه الكتابَ الجامعَ لسيرة خالد ، ويُمكنني أن أقول :

« إنه ثمرةُ الثمراتِ لكل ما كتَب المؤلفونَ عنه ، بل هو فوقَ ذلك قد أكمل مافاتَ غيرَه من تاريخه ، ولم يترك استزادةً لمستزيدٍ يأتى بعده » .

واعذرنى ياصديقى - وأنت كريم - إذا أوجزْتُ وتفضَّلْ مشكوراً واحمِل اعتذارى لصديقك الفاضل الأستاذ المطيعي ، وكان - واللهِ - يُسعدُنى أن أطيل الحديثَ عن الكتاب ، فأكونَ عند حسن ظنك وكريم تقديرِك ؟

المخلص

محمد صالح حرب

تفضل صديقى الشاعر الملهم ، الأستاذ عبد اللطيف النشار ، فبعث إلىّ بقصيدته الآتية ، التى يشرفنى أن أكون حريصاً على أن أطوق جيد هذا الكتاب بها ، قال أطال الله فى عمره :

خالد بن الوليد

بمناسبة إصدار الأستاذ محمد نجيب المطيعى كتابا فى سيرته

حديثُ نجيبٍ عن مناقب خالدٍ
تناول دنيا تحت راية قائد
وما خالدٌ فرداً ، ولكن جيلهُ
وعىُ كيف يبدى الجمعَ فى سَمْت واحد
نهاية فن شادَ من مُهمَل الحصى
شوامخَ يعيي صُنعُها كلَّ مارد
أدَّعمتَ أم عرَّفت إذ تجعل الندى
جداول يجرى ماؤها فى الروافد
أبت ملةُ التوحيد إلا تجمُّعاً
وسيرةَ سيف الله أكبر شاهد
فإنْ كان أبقى للسلام خضوعُه
فلن يفقد الفاروق طاعةَ خالد
ومن جاد بالدنيا فليس بباخل
بطاعته شأنَ الجنود الأماجد

ولم يَنتقِص من قدْره أن يروده
- كما راد أبطالَ الوغى - خيرُ رائد
شجاعتـــه إذ طأطأ الرأس للحجى
تُنافِس أعلى موقف فى الشـــدائد
« نجيبُ » قد اخترت الأوان موَفّقاً
لعَرضِ كريم من سجايا مجاهد
ففى يومنا آذى العراقَ وأهله
وكلَّ بنى الإسلام داءُ التحاسد
وما ضر عباسا (١) ولا ضرّ قاسما
مسيرَهما فى ركب آخرَ راشد
إذا لم نوحّد صفنا مثل خالد
فكيف نرجّى مثل أمجاد خالد
وما بيننا يوم الفخار وبينه
سوى حبه الإيثار رأسَ المحامد
وأمثال عباسٍ وأمثال قاسمٍ
أبادوا المزايا فى صحارى المكائد
« نجيب » جزاك الله خيراً وبرّنا
بقدوة أجداد كرامٍ أماجد
ونحّى الأذى عنا بإخماد جاحم
من الحقد يغلى فى جوانح حاقد

عبد اللطيف الفتال

(١) عباس المهداوى سفاح العراق الهازل

تمهيد

إذا كان العقل البشرى هو نتيجة الحواس ، فإن إختلافه قوة وضعفا يرجع إلى حد كبير إلى مسلك الحواس فى تأدية وظائفها ، وقد يتشابه بعض العباقرة فى تصرفاتهم العقلية والبدنية مع اختلاف واضح فى حواسهم ، فبعضهم يكون ناقصاً فى حواسه نقصاً جزئياً أو نوعياً فيكون هذا النقص سببا فى حدوث قوة عقلية وذهنية خارقتين ، أو قوة إرادية متفوقة ، وهذا يحدث من النكس (رد الفعل) لذلك النقص . وهى قضية يرددها علماء النفس المعاصرون .

ويذهب بعضهم إلى أن الذكاء الخارق فى بعض أفراد النوع البشرى مرتبة من مراتب الجنون ، قالوا لأن الإنسان إذا كان ضعيف الأعصاب كان كثير الانتباه ، لأن ضعف أعصابه يجعله كثير المبالاة فيتعاظم فى نظره كل شىء فيكترث بالتافه من الأمور اكتراثه بعظيمها وخطـــيرها ، وقد يكون الشخص مصاباً بصدمة فى حياته فتحدث له عقدة نفسية من جرائها فتصدر عنه أعمال من وعيه ولكن مصدر تصريفها وتوجيهها فى الحقيقة الرواسب الباطنية المختزنة فى اللاوعى أو اللاشعور ، ويذهبون فى ضرب الأمثال على صحة نظريتهم هذه ببعض عظماء التاريخ كتيمورلنك الأعرج ، وجنكيزخان شبيه الأعمى . ونابليون ويوليوس قيصر (١)

(١) قيصر كلمة رومية ترجمتها بالعربية (الخشمة) بكسر فسكون وهو الجنين الذى تبقر عنه بطن أمه إذا ماتت وهو الذى وقع للقيصر يوليوس ثم أطلق بعد دقلطيانوس على وارث المملكة أو ولى العهد فى الدولة الرومانية لقباً .

(الخشعة) ومارك أنطوان واسكندر من أحلاس النساء أو العاشقين ، ونحن نُرى هؤلاء المتفلسفين من ديارنا العربية وصحارينا المضيئة ضروباً من العبقرية التي لم تكن من ثمرات هاتيك النقائص الحسية أو المعنوية ، ولكنها جاءت من صحة الحواس وصحة الحياة واستقامة الفطرة ، والعرب أمة مؤمنة بمثلها الحية التي يمكن التعبير عنها بالكفاح لإخضاع الحياة وكان ذلك من أثر البيئة في الصحراء الجرداء الطليقة التي لا يعيش فيها إنسان إلا إذا كانت تتوفر فيه صحة استقامة الحياة التي تتألف شرائطها من الفروسية والنخوة والشجاعة وإباء الضيم ويتمثل شاعرهم بما يعد طابعا بارزاً في خلائقهم :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً ... وأنفا حمياً تجتنبك المظالم

أما غير العرب من الشعوب فإما أن يكونوا قد أخذوا إخذهم وتعلموا عنهم طرائق الحرية والسيادة والفروسية فآمنوا بما آمن به العرب وعملوا له وهو (سيادة الحياة) فإن ضعف هذا الإيمان كان «أملا في الحياة» سيما إذا كان مصحوبا بمحاولات من الكفاح الشعبي والنضال من أجل الحياة للحياة ، فإذا لم يكن مصحوبا بمثل هذه المحاولات وهو ما آل اليه أمر العرب والمسلمين وبعض الشعوب الشرقية في عصرنا هذا (١) فهم مسودون للحياة، وهؤلاء تدور

(١) هذا الكلام الذي قلناه في الطبعة الاولى في سنة ١٩٤٣ وقد تغير الوضع الان بعد هذه الثورات المتتابعة وأصبحنا قاب قوسين من مرحلة (سيادة الحياة) .

أعينهم في رؤوسهم (كالذي يغشى عليه من الموت) يسامون الذل فلا يشكون ويتقلبون في أعطاف الهوان فلا يتأبَّون ولا يثورون ، بل هم عن الحياة معرضون ، فأخضعتهم الحياة فكانوا للأحياء مطايا يعتز بالعلو على كواهلهم الغاصبون ، وصاروا غرضا للمنايا والرزايا والبلايا وهم قاعدون ، « إن شر الدواب عند الله الصم البُكمُ الذين لا يعقلون »

* * *

ألا أن محاولتنا تأريخ بطل العروبة والإسلام خالد بن الوليد وكثير من الكتاب قد كتبوا عنه وألفوا من أجله كتبا إلا أني قد أكون في تعرضي لهذا مع تكراره قد ألممت في إيجاز بفصول وقضايا تاريخية ربما لم يطرقها جميع الذين تخصصوا في الكتابة عنه وتوفروا على تأريخه وقد يكون سواد فصوله مكرراً ولكن شفيعي هو العرض ثم ماذكرت من بعض الآراء والوقائع مما لم يسبق ذكره في كتاب خاص بخالد وسيرته إنما هذا عرض لسيرة فرد من افراد النوع الذين استقامت فطرهم باستقامة حواسهم في تأديتها وظائفها الحية كاملة من غير نقصان فكان مسلكهم في الحياة عظيم الأثر، لاتشوبه شائبة من غدر أو خيانة ، أو تؤثر فيه داعية من دواعي الحقد والسخيمة ، فهو يسلك في دنياه عدلا قائما بالقسط يعطي كل شيء نصيبه من المبالاة والاكتراث كما ينبغي أن يكونا قصداً بلا غلو ولا تهاون ، ولا تفريط ولا إفراط ، ثم يمنح الأمور ما تستحقه من التدبير والتقدير والعمل والاحتياط ، وخالد إذا رأيت على تصرفاته بعض الهنات الهينات وهي نادرة في حياته كان ذلك دليلا

وفى ذلك يقول شاعرهم عمرو بن الحارث :

وكنا ولاة البيت من عهد نابت
نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى ! نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

ثم جاءت بعدهم خزاعة ، حتى رجع قصى بن كلاب أحد أبناء مكة من البطن الرابع والعشرين من اسماعيل فجمع قبائل قريش وثار على خزاعة حتى أجلاهم عن البيت وتحررت مكة ثم كان ينبغ بين قبائلها أفراد أقوياء لهم شرف وفضل فى قومهم ، ومن هنا كان شرف قريش لبنى عبد مناف وكان(١) شرف بنى مخزوم إلى المغيرة بن عبد الله بن مخزوم حتى آثر بعض ذريته اسم (المغيرى) على (المخزومى) . وكان هشام بن المغيرة يسمى رب مكة ، ولما مات أرخت قريش بموته ، وكان ابنه أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) زعيما من زعماء قريش ، وكان الوليد بن المغيرة أكبر رجل فى مكة حتى لقب (بالوحيد) و (ريحانة قريش) وحين تلاحى زعماء قريش مع أبى طالب فى أمر النبى (ﷺ) عرضوا عليه أن يبادلوه بمحمد ولداً من أفضل فتيانهم هو عمارة بن الوليد : « يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش

(١) أبو الهول قال لى : تأليف المرحوم حافظ رمضان . ج ١ ص ١٢٥ — ١٢٨

وأجملهم فخذه ، فلك عقله ونصره واتخذه ولداً لك »

واشتد التنافس قبل الإسلام بين بنى عبد مناف وإليهم يرجع بنو هاشم وبين بنى مخزوم ، حتى ظهر الإسلام ، فغضب بنو مخزوم أن يذهب هؤلاء بالنبوة فراحوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤلبون العرب عليه وقال أبو جهل ابن هشام بن المغيرة سيد قريش :

(تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟) .

وكان للوليد بن المغيرة من البنين عشرة فى رواية ابن اسحاق أو ثلاثة عشر على حد رواية ابن جرير أسلم منهم ثلاثة وهم عمارة وهشام وخالد .

أما نسب خالد من جهة أمه فهى (لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن الهلالية وهى أخت ميمونة أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) وما أرانى بحاجة إلى تعريف أم خالد فحسب أم خالد أنها ولدته .

ولو لم تكونى بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لى أمّا

ميلاده :

من الصعب على الباحث أن يعرف الزمن الذى ولد فيه خالد على وجه التحديد ، وليعذرنا القارىء إذا لم نسغ ما كاد يتفق عليه جمهور المؤرخين كالواقدى وابن الأثير وابن اسحاق من أنه ولد قبل الهجرة بخمس وعشرين سنة .

نعم لم نسغ ذلك إذا كانت الهجرة قد حدثت بعد نزول الوحى وتتابعه بثلاث عشرة سنة كان معنى هذا أنه لم يتجاوز الحلم عند ما نزل الوحى فأين

هو يومئذ من ذكر المؤرخين له بأنه قد انتهت إليه الأعنة (١) ، كما انتهت إليه القبة ، على أنه يمكننا من سياق ما قدمنا أن نرجح أن سنه لم تكن أقل من خمس وعشرين سنة عند نزول الوحى وهى السن التى تظهر فيها المواهب ، وتسطع معها العبقرية فى الرأى والحرب ، ومن ذلك يكون ميلاده نحو سنة سبع وثلاثين قبل الهجرة .

نشأته :

نشأ خالد ـ وهو حفيد المغيرة سيد بنى مخزوم ـ وتَرُبِّىَ فى كنف هذا الصخب العريض ، وهذه النعرة المستعرة ، وتغذى بلبان ملتهب تدره أثداء بنات مخزوم ، فتدفق ذلك حيوية أضفت ثوبها على خالد الشاب فاستوى على سنام البطولة ، ولما يدرك الخامسة والعشرين .

حروبه فى الجاهلية :

لم نجد فى كتب التاريخ التى بين أيدينا ذكراً للمواقع التى خاضها فى الجاهلية وليس معنى هذا أنه لم يقاتل بين الصفوف أو قائداً بل إنه قال عند موته : « لقد أدركت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهاءنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء » وأظن أنه لم يدرك هذا الرقم من الزحوف جميعاً وهو فى الإسلام بل لا يخلو أن يكون قد باشر منه قسطاً كبيراً فى الجاهلية ، ولذلك سنترك أمر حروبه فى

(١) الأعنة : الخيل يكون مقدما عليها وإليه قيادتها ، والقبة هي التى كانوا يجعلونها بمثابة مخازن الذخيرة والمؤن لامداد الجيش بها فى المعارك .

الجاهلية إلى الليالى المولية ، والأيام الدابرة ، ولتكن جولات خالد فى حومة الوغى ، وضربات خالد بالعضب البتار وأخذ خالد فرسه الشقراء سواء أكان على وتيرة :

فللساقِ ألهوبٌ وللسوطِ درةٌ
وللزجرِ منهُ وقعُ أهوجَ مِنْعبِ

أو كان على صورة :

فأدركها ثانياً من عِنانه   يمر كمر الرائحِ المتحلبِ

على أى نهج كان أخذه بالعنان ، ثانياً أو مرسلا ، صائحاصيحة الحرب ، نافراً فى الصفوف ، أو مشيراً فى صمت خلال الزحوف ، فأجدر أن ندع ذلك كله لرب الناس ، ومحصى الأنفاس ، ثم نأتى خالداً لنصوب إليه العدسة ونصوره فى حروب الإسلام المقدسة .

حوار :(١)

كانت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي موكلة أختها ميمونة فى تزويجها وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها وكانت خالة خالد بن الوليد وأقامت أم الفضل زوجها العباس مقامها فى تزويج أختها ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين فى عمرة القضاء هدت إلى الإسلام نفسها ! فخاطب العباس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوجها . وقبل محمد وأخذ منها أربعمائة درهم وكانت ثلاثة الأيام التى نص عهد الحديبية عليها

(١) هيكل فى كتاب (حياة محمد)

قد انقضت ولكن محمداً أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة فى التفاهم بينه وبين قريش . فلما جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى من قبل قريش يقولون لمحمد «إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا» قال :(لا وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه) قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء فى أنفس أهل مكة من أثر وكيف سحرتهم وسكنت من خصومتهم ، ويعلم أنهم لو قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدث اليهم وتحدثوا اليه فتحت مكة أمامه أبوابها طائعة وهذا ما خشى سهيل وحويطب لذلك كان جوابهما : (لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا) ولم يتردد محمد فى النزول على رأيهما تنفيذاً لعهده مع قومهما . فأذن فى المسلمين بالرحيل ، وخرج والمسلمون من ورائه وخلف أبا رافع مولاه على ميمونه حتى أتاه بها فى مبنى لها . وميمونة أم المؤمنين آخر أزواج النبى . عمرت بعده خمسين سنة ثم طلبت أن تدفن حيث بنى بها الرسول . وحمل محمد معه أختى ميمونة سلمى أرملة عمه حمزة . وعمارة البكر التى لم تتزوج وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها ، ومحمد لا يشك فى عظم ما تركت عمرة القضاء من أثر فى نفوس قريش وفى نفوس أهل مكة جميعاً ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة . قال الدكتور هيكل :

وصدقت الأيام تقديره ، فإنه ما كاد يتحمل راجعا إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المعلم وبطل أحد يقول فى جمع منها (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من وحى رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه) وقد فزع عكرمة بن أبى جهل لما سمع فرد قائلا : لقد صبوت ياخالد ودار بينهما الحديث الآتى :

خالد ـ لم أصبؤ ولكنى أسلمت .

عكرمة ـ والله إن كان أحد أحق ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

خالد ـ ولمَ ؟

عكرمة ـ لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك ببدر فوالله ماكنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك ياخالد . أما رأيت قريشاً يريدون قتاله !!

خالد ـ هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق.

مراجع البحث واختلافها :

من العسير على الباحث أن ينظم مجموعة الوقائع مسلسلة مؤرخة موضحة بها الخطط العسكرية ، والأسباب التى أدت إلى وضعها والنتائج التى أسفرت عنها ويعزو ذلك المرحوم الفريق طه الهاشمى إلى : « أن القصاصين أو مدونى السير والمغازى أو مؤرخى الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح ، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلا بالإسناد ، وقد نراهم غير متفقين فى تدوينهم الأخبار لى التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة ، ولا على مقدار القوة التى اشتركت فيها ، ومن المعارك مالم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها ، والحقيقة أن التاريخ العسكرى يثبت المعارك التى جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء . فالمعارك التى نشبت بين الجيش المقدونى بقيادة الإسكندر الأكبر والجيش الفارسى فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة أقرب إلى الصحة من الوقائع التى نحن بصددها .

أما المعارك التى جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة والقتال الذى نشب بين القياصرة والقواد المطالبين بالعرش فأخبارها مفصلة فى كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة فى استقصاء الحوادث ، فمعركة « كانيه » التى نشبت ٢١٦ ق م بين الجيش القرطاجنى بقيادة هانيبال والجيش الرومانى ، كانت ولا تزال مثالا ينسج القادة العظام على منواله فى تعبئة الجيش فى ميدان المعركة ، وهى بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها والسبب فى تدوين المعارك تدوينا صحيحاً مع أنها نشبت قبل الفتح الإسلامى بعدة قرون ، هو أن المؤرخين الذين أثبتوها :

١ ـ إما أنهم اشتركوا فيها فعلا . ٢ ـ وإما أنهم قادوها بأنفسهم .

٣ ـ وإما انهم عاشوا فى زمن وقوعها فالقائد زينوفون اليونانى الذى قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى بلاد اليونان راجعا بهم سجل حوادث تلك الرجعة فى كتابه « A nabacice »[1]

وهذا الكتاب لايزال مرجع ثقة الباحثين العسكريين وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه فى بلاد جرمانية فى كتاب « الحروب الغالية » أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الفتوح النبوية وحروب الردة وسائر الفتوح التى تمت فى النصف الأول من القرن الهجرى إلا بعد انقضاء جيلين على أقل تقدير على أن هذا الاختلاف فى التدوين كان أقل اختلافا منه تدوينهم لموقعة (أحد) وذلك :

١ ـ لنزول آيات من القرآن فيها من سورة آل عمران قومت أساسها وحددت تخومها فيما عدا الجيوش المشتركة من الفريقين وهى الناحية الوحيدة

(١) الفريق طه الهاشمى (مجلة الرسالة)

التى حصل فيها اختلاف الرواة إلا أن هذا الاختلاف لا يغير من نسبة أحد الفريقين للآخر كما سنرى .

٢ ـ كثرة رواتها ممن اشتركوا فيها وأبلوا بلاء الصابرين .

مدونو التاريخ الاسلامى :

أول من حاول التدوين من الصحابة عبد الله بن عمر إلا أنه قد وجه همه إلى نطق النبى الكريم بين أصحابه وخاصته وبين الناس وقليل من الأحاديث الفقهية التى جرت أثناء حصار خيبر أو فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، إلا أن عمر رضى الله عنه مزق تلك الصحيفة خشية أن يمضى وقت عليها فيحدث من تطاول الأيام وتتابع الزمن أن تختلط بالقرآن ، ولأن العصر كان لما يزل عصر التدوين للقرآن ، هذا وإن بعض التابعين ممن تلقوا عن ابن عمر كمولاه نافع وغيره قد رووا عنه بعض ما كتبه وتسمى عند المحدثين بالصادقة ثم مضى عهد الصحابة وكان بعده عصر التابعين وهنا قام عروة بن الزبير بالتدوين نقلا عن غيره إلا أنه دوّن تلك الوقائع بدون إسناد وقد توفى سنة ٩٤ فكان تدوينه فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بستين سنة ، ثم إنه دونها بدون سند وهى بهذه المثابة لا تنهض بها حجة (١) فى نظر علماء الرواية الإسلاميين وإن كانت شاهداً عند المؤرخين ، ثم يلى عروة فى التدوين ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ مقتبساً معلوماته من عروة ويليهما ابن هشام الذى استقى أخباره من ابن اسحاق مع أنه توفى

(١) لأن من ضعف الاسناد عندهم الإرسال والانقطاع والإعضال وكلها مترادفة تدل على الحذف من السند .

بعده بقرن ونصف قرن سنة ٢١٣ هـ. ويأتى بعدهم ابن سعد الواقدى الباحث فى حروب الردة ومؤرخ الفتوح الإسلامية فى الشام والعراق والمتوفى سنة ٢٣٠ هـ وقد عاش ٦٢ سنة. ثم يلى هؤلاء جميعاً المؤرخ المشهور والمفسر العظيم ابن جرير الطبرى وهو أول من كتب فى التاريخ كتابة منظمة وقد توفى سنة ٣١٠ هـ أى بعد الفتوحات الإسلامية الأولى بقرنين ونصف قرن على الأقل وهنا يقول الفريق الهاشمى. «والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبرى هو العمدة فى استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير»

ثم قال عن تناقض الأخبار التاريخية: «وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين إلى الديوان الحجازى والرواة المنتمين إلى الديوان العراقى. وكذلك نجد تناقضا فى الروايات التى ينقلها المضرى والربيعى واليمانى والقيسى لأن كل هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة المواقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها» على أننا سنحاول ما أمكننا الجهد أن نستخلص أصح الروايات وأجدرها بالتسجيل لنجعل من هذا التاريخ الذى يتعلق بأكبر عاهل حربى فى التاريخ أحفل تاريخ بالحقائق، وسنعمل على أن يكون لعلوم الاستراتيجية العسكرية نصيب فى الحكم وسنطبق أعمال هذا القائد على قواعد العلم الحديث لنعرف مدى ما أسدى إلى الفن العسكرى من خدمات جُلَّى إلى جانب ما أسدى لدينه وأمته والإنسانية جمعاء وسيعلم المفتونون من المحدثين أن حركة (المروحة) و(الكماشة) والحرب الخاطفة وحرب الأعصاب كل أولئك كانت ترتجل عند خالد ارتجالا يطبقها بنظام تام وإدارة وحزم عظيمين.

موقعة أحد

أول ما رأينا خالداً فى الحرب رأيناه فى موقعة أحد على بعد أميال جنوبى المدينة وكان على ميمنة المشركين. ومن الحرى بنا أن نذكر أسبابها بإيجاز مبينين مبلغ ما كان عند الفريقين من روح معنوية.

انتصر المسلمون انتصاراً باهراً فى غزوة بدر وصرعوا صناديد قريش ودهاقنتها وأهل الرأى فيها ومنهم أبوجهل بن هشام ابن عم خالد والوليد ابن المغيرة أبو خالد وأسر نحو سبعة وسبعين رجلا، وعادت قريش من هذه المعركة بجراح مثخنة، وكلوم دامية، ليس فيها بيت إلا وقد فجع فى عزيز، ولا شيخ إلا وقد فقد ولده أو أخاه، ولا امرأة إلا وقد ندبت زوجاً أو ولداً، فلم تهدأ لها ثائرة، ولم تفتر لها عزيمة، وأخذت تتأهب وتستعد للأخذ بالثأر، والتشفى لقتلى بدر، وأصرت نساء قريش على أن يخرجن مع الجيش يحرضنه، ويخمشنه ويدفعنه دفعاً ويثرن فيه الحمية والدفاع عن العرض وتشاورت قريش فى ذلك فمن قائل بالخروج «فانه أقمن أن يحفظكم، ويذكركم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت» ومن قائل بعدم الخروج: «يا معشر قريش ليس هذا برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم، ولا نأمل أن تكون الدَّبْرة عليكم، فتفتضحوا فى نسائكم» إلا أن هذا القائل خفت صوته وانكمش أمام صيحة هند بنت عتبة: «إنك سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك، نعم! نخرج فنشهد القتال، ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات يوم بدر حين بلغوا الجحفة فقتلت الأحبة يومئذ إذ لم يكن معهم من يحرضهم»

ثم صفت قريش صفوفها وعبأت كتائبها ، وخرجت على النظام الآتى :

قسمت جيشها إلى وحدات خمس : الخيالة وشطرتها وحدتين ميمنة وكانت قيادتها إلى خالد . وميسرة ، وكانت قيادتها إلى عكرمة بن أبى جهل ، والمقدمة وهم عادة من الرماة . والقلب ثم المؤخرة وهم المشاة ، وعقد لواء القيادة العامة إلى عبد العزى طلحة بن أبى طلحة ، ولا شك أن قواعد الحرب الحديثة لاتخرج فى تقاليدها ونظامها عن تلك القواعد والنظم القديمة ، فلا تزال تلك القواعد مرعية إلى اليوم ولم يتغير منها إلا نوع السلاح فحسب أما العناصر الأخرى من الدفاع والهجوم وحسن الرماية ، وقوة المعنوية ، ومراعاة الشرائط الخاصة بسن المحارب وقدرته واستعداده الفنى أضف طريقة التعبئة وغيرها كل أولئك كان ولا يزال مرعيا إلى يومنا هذا ، وأخذ نساء قريش طبولهن ودفوفهن يوقعن عليها أناشيد حماسية .

ويهاً بنى عبد الدار ويهـــاً حماة الأدبار
ضرباً بـــكل بتار

وأيضا :

إن تقبلوا نعـــانق ونفرش النمــــارق
أو تدبروا نفـــارق فراق غــير وامق

وكان جيشهم يبلغ ٣٠٠٠ جندى وقائد .

أما المسلمون فقد خرجوا بعد أن علموا بزحف قريش على المدينة وبعد التشاور فى الخروج وعدمه فمن قائل بعدم الخروج والتربص فى المدينة

إلى أن يأتى المهاجمون فيؤخذون فى سكك المدينة وطرقاتها ضربا من الحصون والجدر ، والفجاج والسبل ، وكان هذا رأى الكثرة الغالبة من كبار المسلمين وأهل المدينة ، وكان هذا هو رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال عبد الله بن أبىّ : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فاذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء ما فضت علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وماخرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا فدعهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

ولكن فتيانا من أولى النجدة ، وذوى الإباء والشمم ثاروا على هذه الخطة ، وأكثر هؤلاء ممن لم يشهدوا بدراً ، دفعهم إيمانهم بالنصر ، وثقتهم ويقينهم فى ضمانة الله إياه لهم فقال قائلهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرِّئة لغيرهم ، وها هم أولاء قد وطئوا سَعَفنا ، فاذا لم نذبَّ عن عرضنا (١) لم يزدرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من الأحابيش ثم جاءوا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفيحبسوننا فى صياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا ؟ : لئن فعلنا لازدادوا جرأة وشنوا الغارات علينا وأصابوا أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » ثم

العرض بكسر العين وسكون الراء كل واد فيه زرع

قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى واقعة بدر وكنت عليها حريصا حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً . وقد والله يارسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى » .

على هذا النحو تعاقب القائلون بالخروج وظهرت الكثرة فى جانبهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أخاف عليكم الهزيمة » ولما كانت الشورى أساس نظام الإسلام وقد أبى القوم إلا الخروج وكان اليوم جمعة فخطب خطبة الجمعة وأنبأهم أن لهم النصر ماصبروا ، وأمرهم بالتهيؤ والتعبئة ثم دخل بيت عائشة بعد الصلاة ومعه أبو بكر وعمر فعمماه صلى الله عليه وسلم وألبساه درعه وتقلد سيفه . ولكن القوم كانوا فى جدل وحوار ونصحهم أسيد بن الحضير بأن يدعوا الأمر لرسول الله وأن يسحبوا اقتراحهم بالخروج ، فلما طلع عليهم رسول الله فعلوا فقال لهم ما كان لنبى لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وخرج المسلمون بعد أن سوّى الرسول صفوفهم واستعرضهم أمامه وأخرج منهم نحو خمسين رامياً وجعل عليهم عبد الله بن جبير واختار لهم شعباً فى الجبل يكمنون فيه قائلا لهم : « احموا ظهورنا ولا تتركوا مكانكم ، ولو رأيتم العدو يتخطفنا فلا تدفعوا عنا وإن رأيتمونا نهزمهم فلا تبرحوا مكمنكم هذا وارشقوا الخيل بالنّبل فإن الخيل لاتقدم على النبل » ثم خاطب بقية الجيش ألاّ تقاتلوا حتى آمركم بالقتال. وكان جيش الرسول لايزيد على ٩٠٠ مقاتل بما فيهم الطابور

الخامس (١) وهم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وعددهم نحو ٣٠٠ مقاتل وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبىّ بن سلول على أنه إذا كان للوثنية طابور خامس فى المسلمين فقد كان للمسلمين أيضا فيها ولكن بنسبة قليلة ولا نذكر منهم إلا العباس بن عبد المطلب إلا أن هذا كان مهمته إخبار الرسول بحركات قريش وهى طريقة التجسس المعروفة أما النظام فأنه لم يكن هناك تفرقة بين هذه الوحدات سواء المرابطة فى شعب الجبل أو المقسمه إلى: ميمنة ، وميسرة ، وقلب، ومؤخرة ، ومقدمة. وتعرف هذه النظرية عند الكتاب العسكريين فى العصر الحديث Close concentration (٢) وهى طريقة يقصد بها التحوط من التطويق « Envlop » .

العصابة الحمراء

مد الرسول يده بسيف وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة سماك وقال وما حقه يارسول الله ؟ فقال : « أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت ، فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين مختالا فقال الرسول: « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » ثم اصطدم الفريقان بسبب تحرش عبد عمرو بن صيفى الأوسى وكان معاديا للرسول وذهب إلى مكة يشعل أوار العداء ضد الرسول زاعما أن أهله وقبيله عندما يرونه فى صفوف قريش ينضمون إليهم

(١) الطابور الخامس كلمة رائعة مأخوذة من قولة الجنرال فرانسكو حين قال : إنه سيدخل مدريد بخمسة طوابير معى أربعة والطابور الخامس فى الداخل .

(٢) The army quarterly by Sir B. General James Edmonds.

ويأخذون بالمسلمين من كل مكان وقد نادى فى أُحد « يامعشر الأوس أنا أبو عامر » فأجابته الأوس : « لا أنعم الله بك عينا يا فاسق » ثم نشب القتال .

وحاول عكرمة بن أبي جهل بميسرة المشركين أن يطوق جناح المسلمين ولكن المسلمين لم يدعوه يتجاوز الجناح « Overlap » فرشقوه بالحجارة وكانت بمثابة القنابل اليدوية اليوم ، ولا شك فى أثرها . وهنا صاح حمزة « أسدالله » صيحة كان الرسول قد لقنها لجيشه رمزاً للحرب فى موقعة أحد وهى « أمت . أمت » كـكلمة السر . وحمى وطيس المعركة ووقف خالد بميمنته يريد تطويق المسلمين من الخلف فرده الرماة الذين بالشعب ، وكلما كر عليهم تراجع من قوة دفاع عبد الله بن جبير وحماة الظهيرة حتى انجلت المعركة عن هزيمة نكراء ثم أحاط المسلمون بنسائهم وعزلوهن عنهم وعزلوا الصنم الذى أخذوه معهم على راحلة ليرمز الى معتقدهم ، وسال الوادى بالحائرين والجرحى والقتلى والأسلاب والأسلحة والدروع وهنا سال لعاب الرماة الحماة لهذه الأموال المكدسة تحت سفح الجبل فحدثتهم أنفسهم أن ينزلوا إلى هذه الغنائم يجمعونها وقال قائلهم : « ولم تقيمون هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ؟ » وخطب فيهم عبد الله حاثا لهم على طاعة الرسول والتزام مارسم لهم فاحتجوا : « بأن الرسول لم يرد أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » وهنا انطلقوا إلى النهب وجمع الغنائم .

هجوم خالد

ولو أن الامر انتهى عند هذا الحد لكان بركة وخيراً على المسلمين ولكن أنَّى بهذه الأمنية ، وخالد بن الوليد فى جيش المشركين وعلى فرسان

الميمنة ؟ وقد اهتبل (١) الفرصة فشد بخيالته على مكان الرماة فأجلاهم ، وكان الباقون منهم دون العشرة وهنا يقول الدكتور هيكل « ولم يفطن المسلمون لفعله — أى خالد — لأنهم شغلوا عنه وعن كل شىء بهذه المغانم يعبّون منها حتى لم يبق رجل منهم وقع فى يده شىء إلا أخذه . وإنهم لكذلك إذ صاح بن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه برجاله وراء جيش المسلمين عند ذلك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا فى المسلمين ضربا وقتلا . وهنالك دارت الدائرة ، فألقى كل مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به ؛ ولكن هيهات هيهات ! لقد تفرقت الصفوف وتمزقت الوحدة وابتلع البحر اللجىّ من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين التى كانت إلى ساعة تقاتل بأمر ربها تنضح عن إيمانها ، وهى الساعة تقاتل لتنجو من براثن الموت ، ومخالب المذلة . وكانت تقاتل متراصة متضامنة ، وهى الآن تقاتل مبعثرة متناكرة . وكانت تقاتل تحت قيادة قوية حازمة حكيمة ، وهى الآن تقاتل ولا قيادة لها ، فلم يكن عجباً أن ترى مسلما يضرب مسلما بسيفه ولا يكاد يعرفه ، وصاح صائح فى الناس : إن محمداً قد قتل ، فازدادت الفوضى وعظمت البلية ، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضربون بعضهم بعضا ولا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش . قتل المسلمون مواطنهم المسلم حسيل بن جابر أبا حذيفة وهم لا يعرفونه وكان أكبر همّ كل مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله من أمثال على بن أبى طالب .

وفى هذه المعركة جرح الرسول وكسرت ثنيته ودخلت حلقة المغفر فى رأسه ، وكانت فاطمة وغيرها من نساء المسلمين يطفن على الجرحى يضمدنهم

(١) أى انتهز .

ويسعفنهم بالعلاج ، وسقط الرسول صلى الله عليه وسلم فى حفرة حفرها أبو عامر الأوسى فانتشله على بن أبى طالب ، وجعل يسير وأصحابه متسلقين أحداً ناجين من العدو واتّباعه إياهم.

وهنا أحست قريش بأنها قد تشفت وأخذت بالثأر وصاح أبو سفيان « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » هذه خلاصة ما حدث فى أحد ومنها نعلم أن خالداً ـ مع الأسف الشديد ـ كان هو العامل على هزيمة المسلمين بيقظته وعبقريته ، وانتهازه الفرصة .

ترى ماذا يكون موقف خالد من المسلمين بعد ذلك ؟ وقد كان كما قدمنا عاملا من أقوى العوامل على أن تكر قريش كرتها الهائلة ، فتشفى بذلك غليلها ، وتروى من الدماء غليلها ، إنه لاشك مقدم على مجد لايطاوله مجد أحد من أشراف قريش وأساطينها ، وإن وجهه العابس ، وجه المحارب الفاتك ، الذى ينماز بأثر الجدرى ليزيده رهبة ، ويضفى عليه من وحى الفزع والرعب ما يجعله شامة موموقه فى (أم القرى) عاصمة الجزيرة وقبلة العرب أجمعين ، ليبسم لما ينتظره ، وما تعد له الأيام ، وقد صار ملء السمع والبصر .

ودارت الأيام دورتها ، وغزا محمد صلى الله عليه وسلم بنى النضير ثم بنى قريظة بعد أن رد الأحزاب عن المدينة وكانوا قد أغاروا عليها بتحريض من يهودها الذين هم بنو قريظة وبنو النضير ، وقد تم لرسول الله إجلاء هؤلاء اليهود عن يثرب عاصمة ملكه ، ومحط أنظار أوليائه ، ومذياع دعوته ، ثم نظم رسول الله بنعمة ربه هذه الجماعة الإسلامية ونزلت فى هذه الفترة التى تبلغ الخمس سنوات أو أكثر سورة آل عمران ، والأحزاب والبقرة والحشر والمائدة والنســاء وسوراً وآيات أخر ثم تمت غزوات ذى قرد ، وبنى المصطلق وقضائه على فتنة عبد الله بن أبىّ زعيم المنافقين فكان لابد لذلك كله أثر بالغ فى نفس خالد كما كان أثر ذلك واضحا فى نفوس سادة قريش.

بين الاسلام والوثنية

ترى هل تغفل عين خالد الساهرة عن هذا السلطان النامى ، وهذا النفوذ الذى يتسع رويداً رويداً ، وئيداً فى رسوخ واثبا فى ركز واستقرار ، لقد دان لمحمد شطر نجد ، وشطر الحجاز ، وتوالت عليه زمر من المهاجرين الذين بلغتهم الدعوة فأقبلوا يشهدون لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، ثم هل ينسى خالد مقالة أبيه الوليد حين جاء محمداً يوما فى مكة يعرض عليه الطب إن كان به مرض ، أو الرقى إن كان به جنة ، أو المال إن كان يريد الثراء والغنى أو السيادة إن كان يهواها ؟ فما كان من محمد إلا أن جلس مجلس الصلاة وتلا أول سورة فصلت إلى قوله تعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا الخ الآيات من ١ إلى ٢٧ فقال الوليد : « والله إن هذا ليس من كلام الإنس ، وإن فيه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلا » . فاذا كان الوليد قد نكص بعد فقال إن هذا إلا سحر يؤثر فان ذلك من خوفه على سلطانه وزعامته بعد أن هدده بن أخيه أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) وقد سجل القرآن هذه الحادثة وزاد عليها تسجيله شهادة خالد وإخوته على أبيهم هذا النكوص المزرى وهم من هم رجولة وصدقاً فقال تعالى « ذرنى ومَن خلقتُ وحيداً وجعلتُ له مالاً ممدوداً وبنين شُهوداً ، الى قوله تعالى :

إنه فَكَّر وَقَدَّر ، فقُتِل كيف قدَّر ؟ ثم قُتِل كيف قدر ؟ ثم نَظر ، ثم عَبَس وبَسَر ثم أدبَر واستكبر ، فقال إنْ هذا إلاَّ سِحرٌ يُؤثَر » الخ ، الآيات من ١١ إلى ٣٠ من سورة المدَّثِّر .

فلعل خالداً قد استعرض هذا كله ، واستعرض إلى جانبه أن موقعة أحد وان انتهت بهزيمة المسلمين فان المسلمين كانوا يقاتلون خمسة أضعافهم ولقد انتصروا عليهم فى أول الأمر بقوة إيمانهم ، واستماتتهم فى سبيل الحق الذى به آمنوا ، والذى باتوا يعتقدون أن ليس لهم رسالة فى هذه الحياة إلا رسالة هذا الإسلام والإسلام فحسب فيه يعيشون ، وله يموتون ، ولقد ظهر ماعليه المسلمون من روح عالية ، وثقة بالله لا تطاولها عنجهية الجاهلية ، وغطرسة الوثنية ، ألا إن هذا الرجل لو كان كاذبا فى دعوته الى الله لخارت عزيمته ، ولخانته قواه ، ولظهر كذبه على هؤلاء الذين احتضنوه دهراً وهم ليسوا من آله ، ثم هم بعد ذلك من جنده الأنصار .

بيض الوجوه وأبطال لبوسهمو
من نسج داود فى الهيجا سرابيل
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
ضرب اذا عرد السود التنابيل

الحق أن الاستقراء المنطق ينصف المسلمين ، ويعزو هزيمتهم الى مخالفة أصحاب بن جبير ، ورغبتهم فى المغانم ، وقد غلب على ظنهم أن ليس للمشركين من كيان بعد هزيمتهم واندحارهم اقرأ إن شئت قوله تعالى « ولقد

صدقكم الله وعده إذ تحسونهم (١) بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون (٢) ، منكم من يريد الدنيا (٣) ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » آل عمران الآية ١٥٢ .

* * *

(١) تحسونهم أى تقتلونهم (٢) أراكم ماتحبون من النصر (٣) بأخذ الاسلاب والغنائم .

نحو الاسلام

فى ذات صباح من شهر شوال من السنة السادسة من الهجرة والناس مجتمعون بالمسجد إذ نبأهم الرسول برؤياه التى عرف الناس صدقها والتى قالت عائشة : « إنه كان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » فقال : « رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون » ثم أذن محمد فى الناس بالحج وأبلغ أمر ذلك الى القبائل غير المسلمة من العرب لتخرج معه فلبى دعوته بعضهم ، وأبطأ عليه آخرون، وخرج رسول الله فى أول ذى القعدة فى ألف وأربعمائة غير مسلحين بسلاح الحرب إلا مايحمل المسافر من سيف فى غمـــده ، وساق الرسول والمسلمون الهدى معهم ليتصدقوا على فقراء مكة ، ويطعموا القانع والمُعْتَرّ .

لا قتال . لاحرب . هكذا يقول منطق هذه القصة فالمسلمون خرجوا يريدون الحج إلى بيت الله لابيت قريش ، وقد خرجوا فى ذى القعدة الحرام الذى لا قتال فيه ، ولم يحملوا معهم زاد المحارب ومؤونته من عتاد وميرة ، بل ساقوا الهدى ومازوا جوانبها اليمنى كما أمر الله ، وامتطى الرسول ناقته القصواء ، وأحرم بالعمرة من ذى الحُليفة(١) ثم هو قد أشرك معه فى ذلك بعض الوثنيين من الأعراب .

وانتهى الخبر إلى قريش بمسير محمد إلى مكة فأسقط فى أيديهم ، ولم يثنهم أن المسلمين لم يريدوا إلا أداء مناسكهم ،وإشباع عاطفتهم الدينية المرعية

(١) قرية على بعد ستة أميال من المدينة وهى ميقات أهل المدينة يحرمون منها للحج .

رعاية البيت عند العرب بأسرهم ، نعم لم يثنهم ذلك عن أن يجتمعوا ليقرروا منع محمد من دخول مكة بالغاً مابلغ الثمن، وعقدوا لخالدبن الوليد لواء قيادة جيش من الفرسان بمعاونة عكرمة بن أبى جهل يبلغ مائتين ؛ وتقدم هذا الجيش يريد منع المسلمين من دخول مكة حتى بلغ الجيش مكاناً قصيا عن مكة يعرف بذى طوى ، قال الدكتور هيكل :

« أما محمد فتابع مسيرته حتى اذا كان بعُسْفان(١) لقيه رجل من بنى كعب سأله النبى عما قد يكون لديه من أخبار قريش ، فكان جوابه : « قد سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله ، لاتدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم (٢) » قال محمد : « ياويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! ؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد عنى هذه السالفة (٣) » .

رغبة الرسول السلمية :

قلنا : إن خالداً وعكرمة بن أبى جهل خرجا فى مائتى فارس سالكين طريقاً أفضى بهم الى ذى طوى يريدون أن يصدوا المسلمين عن دخول مكة

(١) عسفان : قرية أو منهله بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .

(٢) كراع الغميم : واد أمام عسفان بثمانية أميال .

(٣) صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به .

وأداء المناسك ، وهنا تتجلى حكمة الرسول وحنكته وسياسته .

لعل قائلا يقول : ماذا عليه لو تصدى لهم دفاعاً عن دعوة الحق جل وعلا ومعه قوم حريصون على الشهادة ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ؟

نعم إنهم ليسوا مزودين بسلاح الحرب وعدة القتال ، ولكن عند الضرورة تكفيهم سيوفهم إذا هم استلوها من أغمادها ، دفعاً للعدوان عنهم، ولسجلوا على قريش خزى الدهر وعار الأبد - حتى لو فرضنا أسوأ الفروض وانهزم المسلمون - اذ سيعلم الناس أن قريشاً قد ارتكبت ثلاثة أمور جسام أدناهن أكبر الجرائم فى نظر العربى الحر .

أولا — هى المعتدية البادئة .

ثانياً — أنها صدت بعض العرب عن بيت الله الحرام الذى لا يخص قريشاً دون سواها من العرب الحج إليه ، وقد جعلت التقاليد المتبعة أوائد عرصاته مناسك لهم أجمعين .

ثالثا — أنها أخرجت جيشاً للقتال فى شهر من الأشهر الحرم .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان أدق تقديرا للأمور ، وأبعد نظراً فلقد أنشأ ينادى فى الناس :

« من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ » وتقدم أحدهم وأخذ يسلك بهم طريقاً وعراً لا يبلغ سالكه مبلغه إلا فى مشقة ورهق فى تلك الشعاب الحديدة ..

ولقد كان من سلوكها واختراق تلك الناشزات(١) فيها أن أضناهم وألغبهم(٢) المسير أكثر مما لو تصدوا لخالد وجيشه مقاتلين ، ولكنها سياسة السلم هى التى تسيطر على تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك برهان رغبته فيه وحسن قصده ، وأذكر أنى قرأت للمستشرق « موير » : « إن محمداً لم يكن ثائراً ، ولم يكن شخصاً يميل إلى الحرب إلا إذا ألجىء إليها واضطرته وقائع الأحوال إلى ذلك فيكون عمله محض دفاع، ولقد دلت سورة الأنفال على ذلك « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »

خالد يريد الهجوم

وظل القوم سائرين إلى أن انتهوا إلى منبسط فى عرض الوادى يقال له ثنية المُرار (٣) فلما رأى خالد ما فعل الرسول أراد أن ينقض عليه بخيله فرآهم يصلون صلاة العصر فكأن شيئاً يأخذ بحجزته ويمنعه من ذلك ، ورأى روعة النظام ، وجلال العبادة ، والقوم يركعون لله ويسجدون ويسبحون بحمده فقفل راجعاً من فوره ليقف أمام المسلمين دون دخول مكة عندمكة بعد أن ترك هذا المشهد الرائع أثراً فى نفسه ، ويروى المحدثون وعلماء السيرة أن القصواء ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم بركت عند الحديبية فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : إنما حبسها حابس الفيل عن مكة والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة سلم يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

(١) النشز المرتفع من الارض .

(٢) ألغبهم أتعبهم ومنه قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) .

(٣) مهبط الحديبية عند أسفل مكة .

محادثات الفريقين وتوقيع المعاهدة :

وحدث أن أوفدت قريش بُدَيل بن ورقاء من خزاعة ثم الحليس سيد الأحابيش ، ثم عروة بن مسعود الثقفى ، وطالت المحادثات التى تريد قريش من ورائها أن يرجع الرسول عما أزمعه ثم كان أن أوفد إليهم من يقنعهم برغبته فى السلم وأنه لم يقصد إلا أداء المناسك وأنه يحرم بالعمرة وهى من شعائر الله ، فعرض الأمر على عمر فأبى لما بينه وبينهم من شدته عليهم ، ودله على عثمان فأوفده فما كان منهم إلا أن احتبسوه عندهم وكانت النتيجة أن عقدت محالفة بين قريش والرسول صلى الله عليه وسلم هذا نصها :

« باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بنى قريش أنهما قد تهادنا عشر سنين ، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب من العرب أن يدخل فى حلف محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب أن يدخل فى حلف قريش فلا جناح عليه وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها » .

ودارت الأيام مرة أخرى واكتمل العام وبات المسلمون فى انتظار الإذن بالمسير الى العمرة (١) لقضائها ، وقد تم للمسلمين فى هذا العام من كمال النظام وتمام الاصلاح الاجتماعى ما جعل دعوتهم أكثر فهما وأبلغ عرضاً بإيفاء الله لها من المنعة والسلطان ، فلقد حرم الله الخمر فى هذا العام

(١) ومن ذلك سميت عمرة القضاء ، أو عمرة القضية .

وأوفد الرسول وفوده الى ملوك الأرض جميعا يدعوهم أن أسلموا تسلموا يؤتكم الله الأجر مرتين وإلا فعليكم إثم من تلونهم من رعاياكم وطهر الجزيرة من بقية من نفوذ اليهود ودخل خيبر فاتحا غازيا بعد حصار مدنها وحصونها ، وظهرت آيات كثيرة على يدى نبى الله فى هذا العام . كل تلك العوامل تركت أثرها وفعلت فعلها فى نفس خالد الجياشة .

حديث خالد عن نفسه :

وهنا ندع خالداً يتحدث عن نفسه (١) قال :

« لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن على محمد فليس موطن أشهده إلا وأنصرف ، وأنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله إلى الحديبية ، خرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله فى أصحابه بعسفان فقمت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه للظهر إماماً ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى باصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا ، وقلت الرجل ممنوع ، وافترقنا ، وعدل عن سَنن خيلنا فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ، ودافعته قريش بالراح ،

(١) الواقدى عن الحارث بن هشام قال سمعت خالداً يقول ، وابن عساكر فى تاريخه متصلا بسنده الى الحارث كذلك وقد أضفنا الى حديثه مع عمرو (والله لقد استقام الى قوله فتى ، من روايات أخر مسندة صحيحة) .

الميسم ، وإن الرجل لنبي أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ قال عمرو: وذاك الذى أقدمنى والله ماجئت لا لأسلم ، قال : فاصطحبنا جميعا ، حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرّة ركابنا ، وأخبر بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسرّ بنا، فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله ينتظركم ، وقد أخبر بقدومكم ، فأسرعت المشى ، فطلعت فما زال يبتسم إلىّ حتى طلعت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد السلام بوجه طلق فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقال : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ورجوت ألا يسلمك إلا إلى خير ، قلت : يارسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عايك معانداً على الحق فادع الله يغفرها لى ، فقال : الاسلام يجُبُّ ما قبله ، قلت يارسول الله ، على ذلك ؟ فقال اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك. قال خالد : وتقدم عمرو وعثمان فبايعا وكان قدومنا فى صفر من سنة ثمان فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه » .

قال الزبير بن بكار : هاجر بعد الحديبية خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى طلحة فقال رسول الله حين رآهم : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » ولم يزل رسول الله يولىّ خالداً الخيل ويجعله فى مقدمته فى مهاجرة العرب.

صفحة جديدة

وهنا تبدأ صفحة جديدة فى سجل حياة هذا البطل ، تحوّلٌ من دفاع عن الأوثان ، وذب عن تقاليد الآباء وسجود للات والعزى ومناة ، وهبل وما إليهن(١) وصاح خالد فى وجه قريش قبل أن يخرج من مكة بأيام « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من وحى رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه » فكانت هذه الصيحة إيذانا بانصراف بطل قريش وسيد مخزوم بقلبه الحى ، وضميره الهائم إلى المثل العليا مجسمة فى الدين الجديد . فلم تسعه مكة موطن عظمته ، ومحلة شرفه وسؤدده ، فهاجر إلى المدينة ليلقى محمداً ثَمَّ.

ذلك حادث خطير فى تاريخ قريش ، اهتزت له جنبات مكة ، وارتعدت منه فرائص أبى سفيان زعيمها ، وإن قريشا من الآن لتتوقع بين حين وآخر طرقات محمد القوية لأبوابها وتحت رايته ابن السيف وأبو السيف خالد ، فلا يلبث أن يتداعى وصيده من زحف ثم فتح ، يعقبهما استسلام لمحمد وتوديع لعهد الأصنام .

لنترك قريشا ومعها قبائل العرب الضاربة حولها تتوجس ما تتوجس ، ولندعها تسمر فى دار الندوة كل مساء تتحدث عن مصيرها ، وما سيئول إليه أمر هذه الدعوة من سلطان وأيد ، ولنأت إلى خالد بين المسلمين يحج إلى المسجد خمسا بين كل غبوق (٢) وعتمة .

---

(١) كان بمكة أوانئذ ثلاثمائة صنم وستين صنما وكانت منها تماثيل من نحاس وحديد وذهب وكان أكبرهن صنم من خزاعة من النحاس مثبتة فى الارض على قوائم .

(٢) من الصبح إلى العشاء .

مشورة دامية :

رأى خالد بين صفوف المسلمين قوما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بين طيات الجوانح ، وقد كان يرى ذلك من قبل أن يسلم لاسيما فى أحد حيث انصرف المنافقون من هؤلاء منفضين من خلف النبى تاركين إياه وحفنة من أصحابه يعمل فيهم سيف خالد يومذاك فلم يكن منه بعد إسلامه إلا أن هُرع إلى الرسول هاتفا فى شجاعة وجرأة « مرنى يارسول الله ، وأنا أحكّم السيف فى الرقاب »

فلم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المشورة الدامية ، فقال على الفور : « أخشى أن يتحدث الناس ، أن محمدا يقتل أصحابه » وكانت حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم تتغلب على حماسة كثير من المؤمنين الملتهبين غيرة قد تطيش الأغراض دون مرماها .

حديث الإسلام فى الامبراطورية :

إن المتتبع لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أنه هو الذى حدد تخوم الامبراطورية الإسلامية إلى ما بعد عهده بثمانمائة سنة ، وهذه كتبه إلى ملوك الأرض جميعا توضح أغراضه ، أى قريش مالكم قد شغلتم أذهانكم بالتفكير فى القضاء على محمد ودعوته ، وأنه وايم الحق عبثا ماتحاولون ، وباطلا ما تدبرون ، ولن يضير دين الله ما تبيتون ، هذا حديث الإسلام يتجاوز الحدود ويصل إلى هاتين الامبراطوريتين العظيمتين فى الشمال . . . إلى الرومان والفرس فلقد كان الملوك يتهادون الأخبار فيما بينهم فأرسل

حاكم بُصرى(١) برجل من العرب إلى هرقل أمبراطور الروم ، ومعه رسول من قبله يقول : إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب . فسله عنه . قال هرقل لترجمانه : سله عنه ، ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده ؟

فقال العربى :

— خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبىّ قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك . فنادى هرقل صاحب شرطته وقال له :

— قلب لى الشام ظهراً وبطناً حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ويتحدث أبو سفيان بن حرب (٢) فيقول :

« إنا لبغزة من مدن الشام إذ هجم علينا صاحب شرطة هرقل فقال : أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا نعم - قال : فانطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه ، فلما انتهينا إليه قال : فأيكم أمسّ به رحماً ؟ قال أبو سفيان : أنا - ثم أخذا يتحاوران فى أمر الرسول حواراً طويلا حاول فيه زعيم مكة أن يتكلم بلهجة تحط من قدر المسلمين. ولولا الحياء من أن يأثر عنه أصحابه كذبا - والكذب عيب من أكبر العيوب التى يأباها أحرار العرب - لكذب على رسول الله ، فلما انتهى الحديث خرج أبو سفيان من حضرة

(١) تاريخ ابن جرير الطبرى .

(٢) فى صحيح أبى عبدالله البخارى ج : ١ من كتاب بدء الوحى عن أبى سفيان أنهم كانوا بإيلياء وهذه الرواية التى سقناها (إنا لبغزة) للطبرى فى التاريخ .

هرقل وهو يضرب كفا على كف ويقول : « أى عباد الله لقد أصبح ملوك بنى الأصفر (الفرنج) يهابونه فى سلطانهم » وهنا قدم على هرقل دحية بن خليفة الكلبى ومعه كتاب من رسول الله (ص) يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن إثم الأكاريين (١) عليك » محمد رسول الله (٢) .

مايدبره القدر لهرقل :

فى سنة ٩٢٦ غادر هرقل القسطنطينية إلى المشرق لكى يحج إلى البيت الذى رد عنه المنتهكين لحرمته من جنود الفرس (بيت المقدس) شاكراً معظما هذا البيت وصف « بتلر » مسير هرقل وصفا (٣) بارعا يقول :

« سار الامبراطور فى سبيله إلى أن لاحت له المدينة المقدسة عن بعد .

---

(١) وفى رواية البخارى فإن عليك إثم الأريسيين ، وهما لفظان روميان Arice الفلاح و Akar اسم من تمذهب بالمذهب اليعقوبى وهو أصل المذهبين الكاثوليكى والأرثوذكسى وكان المذهب اليعقوبى يسود الكنيستين الشرقية والغربية حينئذ .

(٢) ينكر بعض المستشرقين أن النبى أرسل كتبا إلى الملوك ودليلهم على هذا أنه لم يعثر فيما خلف من وثائق ذلك العهد وعلى الأخص في تاريخ الرومان مايدل على أن كتبا جاءت إلى هرقل أو إلى غيره إلا أن السير توماس أرنولد يقول فى كتابه الدعاية الإسلامية :

(على أنه وإن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر بعض من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق والغرور الداعى إلى السخرية فقد برهنت الأيام على أنها إنما صدرت عن يقين ثابت وحماسة متقدة . وتدل هذه الكتب دلالة واضحة على دعوى عموم الرسالة التى تكررت فى القرآن للحث على الإسلام .

(٣) ترجمة الاستاذ محمد فريد أبو حديد

ومن السهل أن نتصور موكبه فى خيل تلمع عدتها من حديد يبرق وألوية على الخيل تخفق ومن رماة بالنبال وكماة فى يد كل رمحه وعليه درعه وقد احتقب كنانته . وفى وسطهم سار هرقل فى خاصته وهم جميعاً قطعة تتلألأ من الذهب وزاهى الألوان حتى إذا ما اقترب من المدينة خرج إليه موكب من القسيسين والرهبان يحملون الأناجيل والشموع والمجامر كما كانت عاداتهم فى احتفالاتهم وجاءت من ورائهم جموع الأهلين .

« وهكذا سار حتى بلغ الباب الذهبى فى الجانب الشرقى من المدينة ، وكان فى انتظاره هناك البطريق زكريا فسلم عليه وأظهر الخضوع ثم أخذ يحنفه على فخامة ملبسه وأمره أن يخلع رداءه الأرجوانى ويطرح ماعليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع .

« وسار الامبراطور فى لباس الحاج المنيب إلى ربه ثم كان بعد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم « إعلاء الصليب » ولاتزال ذكراه اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية كلاهما فى ١٤ سبتمبر » اه

حقا لقد بلغ القيصر قمة المجد ، جمع من الشعوب تحت حكمه بما لم يجتمع لملك فى عصره أو بين يدى عصره مما مضى ، وكان تحت قيادته أضخم جيوش المعمورة إذ ذاك ، فضلا عما كان فى خزائنه من أكداس كالجبال من ذهب وجوهر وهما مادة الجاه والقوة ويقول صاحب السلسلة الإسلامية :

« جلس هرقل يوماً يفكر فى رحلة حياته وما وصل إليه من مجد . وراجع قوته وراجع قوى من فى الدنيا فوجد نفسه أعز الملوك جانباً وأمنعهم سلطاناً فابتسم ابتسامة الرضى وأغمض قليلا ، ثم وقف يتمطى فى

تثاقل . وهنا رنت فى عالم الغيب ضحكة لم يسمعها هرقل ولكن سمعها التاريخ الذى أنشد :

تقفون والفلك المحرك دائر ... وتقدرون فتضحك الأقدار ، اه

خالد بين صفوف الجيش المحمدى :

لم يمض على إسلام خالد بن الوليد سوى شهرين وبعض (١) الشهر حتى اندمج فى سلك الجند الذين ألف الرسول منهم جيشاً للهجوم على الامبراطورية الرومانية ولم يكن الغرض من هذا الجيش الصغير الذى لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل سوى إشارة بازرة للمسلمين وخلفائهم من نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى أن يكون شعارهم الغزو ، فالمسلم لا يكون مسلماً صحيحاً فى نظر الإسلام إلا إذا تهيأ واستعد ، وإلا إذا ربط على قلبه بنية على الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ورفع شأن الحق فى العالمين ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَنْوِ الغَزْوَ ماتَ مِيتَةً جاهلية » وهذا لا ينافى ما قدمنا من سياسة الإسلام السلمية وجعل السلام شعاره فى كل شيء فى التحية وفى الصلاة ، وفى اسمه وفى مسماه وفى كثير من آيات الكتاب المجيد ، فإن السلام المسلح هو السلام الدائم الحرام ، الذى لا يلوث ساحته اعتداء ، ولا تشوبه جاهلية ولا عنصرية .

تهيأ الجيش للسير بقيادة زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) وكان الرسول قد أوصى بأنه إذا قتل زيد فليخلفه جعفر بن أبى طالب ابن عم الرسول

---

(١) كان إسلام خالد كما روى عن نفسه فى صفر من السنة الثامنة من الهجرة وكان خروج الجيش إلى الشام فى غرة جمادى الأولى من نفس السنة .

(ص) فاذا مات فليخلفه عبدالله بن رواحه الشاعر الثانى للرسول (١) .

وصل الجيش إلى معان من أرض الشام وكان خبر مسيره قد وصل إلى الروم فأرسل هرقل أخاه على رأس جيش من الروم والعرب يبالغ المؤرخون فى تقديره فمنهم من يقول : مائة ألف ومن يقول : مائتى ألف كابن اسحق وهذه أرقام مبالغ فيها كل المبالغة سيما إذا علمنا أن المسلمين لم يتسن لهم إحصاء الروم حين المعركة ونتيجة المعركة التى أسفرت عن قتل اثنى عشر صحابيا تدل على أن هذا العدد الضخم مبالغ فيه . وغاية ما نسلم به أن جيش الروم كان هائلا بالنسبة لجيش المسلمين ويمكن تقديره بأنه كان عشرة أضعافه على الأكثر.

التحام المعركة وقتل زيد :

ترامى إلى شرحبيل والى هرقل على الشام أمر هذه الغارة الإسلامية فحشد جيشاً كثيفاً يبلغ عشرة أضعاف المغيرين المسلمين ، وكان يقود هذا الجيش تيودور أخو هرقل ، وابتدأت الحركات العسكرية عند مُؤْتَة من أرض البلقاء ، وكان قائد جيش المسلمين زيد بن حارثة ، حِبّ رسول الله ومولاه ، فاقتحم بسريته الصغيرة القليلة ذلك الجيش اللجب من الروم

---

(١) الشاعر الاول حسان بن ثابت طبعاً ، وعبدالله بن رواحه هو القائل يوم عمرة القضاء حين كان الرسول يطوف بالبيت وهو يسير بين يديه قصيدته الحماسية :

خلو بنى الكفار عن سبيله ... خلو فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله ... فى صحف تتلى على رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله
اليوم نقريكم على تأويله ... ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

والعرب المتنصرة ، ولكن مالبث أن تناوشته الرماح ، ورشقته السهام ، ومزقته الصوارم ، نخر صريعاً سريعاً إلى الجنة .

وفى لمح البصر هُرع [١] إلى اللواء جعفر بن أبى طالب فحمله واندفع المسلمون من ورائه يضربون ذات اليمين وذات الشمال ، بقلوب كالجبال فى رقاب جيش كالرمال ملك الأرض شرقا وغربا وأخذ كل عصيّة غصبا ، وملوكهم فى الحرب أشبه بالشياطين منهم بالسلاطين ، ولكن قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء .

كان جعفر يحارب بيسراه واللواء مأخوذ بيمناه ، مرفرف خفاق ، فعاجلته ضربة فى تلك اليمين طوحت بها فألقت يساره السيف ، وتناول اللواء بها ، و لم يكن مصيرها أحسن من مصير أختها فبترتها السيوف بتراً ، فأخذ اللواء بعضديه يحتضنه ، ومازال يتنقل راجلا بين جهات المعركة حاضا جنده آخذاً براية نبيه ، بما بقى من طرفيه وأسنانه منكبا عليها ناسياً حياته وكل شىء فى سبيل كرامة هذا العلم ، رمز الدولة المحمدية المقبلة .

وفى هذا المنظر الفاجع أخذ يشعب الدم فى تدفق ، يخط على الثرى معالم الامبراطورية الإسلامية ، ويصبغ تلك التخوم بصبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، حتى خارت قواه فكان « نعم القتيل إذا الرياح تناوحت » ولقد كان إلى دقائق معدودات يقتحم الجحفل حتى إذا ماتزاحم عليه الأعداء وتكأكأوا حول فرسه يريدون أن يمزقوه ، وثب على الأرض وعقرها

(١) هرع بالبناء للمجهول وهو من الأفعال اللازمة لذلك كاستهتر وعنى وأعجب وشاهده قوله تعالى (وجاءه قومه يهرعون إليه) .

بسيفه ثم اقتحم الجمع راجلا ومعه العلم لا يقترب منه قرم عنيد حتى يهد بناءه هدآ ، ولكن ما لبث أن خارت قواه بعد هذا الدم الغزير المدرار فسقط على الأرض جثة هامدة ، وسمت روحه إلى عليين .

وجاء عبد الله بن رواحة ينفذ وصاة الرسول (ص) فتولى القيادة وأخذ الراية إلا أنه لم يكد يخوض المعركة حتى لحق برفيقيه إلى الجنة من ضربات الروم وتكاثرهم عليه ، كل ذلك والمسلمون يبدون من وسائل العناد فى الحرب والمقاومة ما أدهش الروم ، إذ كيف لا يستسلم هؤلاء القليلو العدد ؟ وكيف يحاربون ولا أمل لهم فى النصر على عدد لا يمكن أن نذكر النسبة بينهما للبون الشاسع والفرق الواسع ؟ .

وإنهم لا يبالون بكثرة عدوهم وقلتهم أنفسهم حتى ليهدنهم هذا العناد بالفناء الساحق ، فما ضعفوا وما استكانوا !! . .

من يكون القائد ؟

وتساءل العسكر من يكون القائد بعد قتل الثلاثة الذين عينهم الرسول (ص) واجتمع أهل الشورى وأصحاب الرأى من الجيش ، وتباحثوا فيمن يخلف عبد الله فى القيادة وصاح كل مشير باسم ، وهتف كل منهم بشخص ، فلا عجب ، أن يكون هذا الاسم هو خالد وهو بهذه الثقة قمين . . .

خالد يحمل علم النبى :

أجل إنه خالد ، إنها الكلمة التى ابتدرتها أفواه الرجال الأشاوس ، فى أخطر المآزق ، وأشد اللحظات وأحرجها ، تلقفها الزمان ليهتف بها فى كل

العصور ليحقق معناها الخالد ، فتأكل أنياب الدهر أسماء الملايين من الرجال ، وتتحطم شرة لهاته دون إسم خالد ، ومن هو آخذ من مسمى خالد بنصيب ، وذلك جزاء الخالدين .

خطة مبتكرة :

بات خالد تلك الليلة التي تقرر أن يكون فيها قائداً ، ساهراً برأسه المفكر وعقله العامل ، وعبقريته النفاذة المشرقة ، لينقذ جيشه من براثن الموت المحقق ، الذي لا أمل معه في النصر ، وقام قبيل الفجر وأيقظ جيشه في رفق وأناة ، ونظم لهم خطة تبين في هذه العصور الأخيرة وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا من الزمان مبلغ شأنها (١) ، ذلك أنه أمر جماعة أن ينسحبوا في خط طويل يمتد بما في طاقته من امتداد ، وأن يكونوا حلقاً على شكل دوائر على أن يحملوا معهم طبولا وأبواق حرب ويسوقوا أمامهم خيولا ، فإذا كان الصبح يأخذون في قرع الطبول ، والنفخ في الأبواق وأن يسوقوا أمامهم الخيل لتثير نقع البطحاء ، فتسد الفضاء غباراً .

ونفذ هؤلاء الجند مارسمه لهم خالد ، واستيقظ الأعداء على هذه الجلبة وأخبرتهم طلائعهم بأمر هذه الضوضاء . ترى ماذا كان حديثهم ؟ . .

---

(١) راجع الحرب الحاضرة Der Krieg der Gegenwart by G. Schliefen وراجع كذلك (نتيجة المعركة) Der Schlachterfolg لهيئة أركان الحرب العظمى ، وراجع كذلك كتاب (الأمة المسلحة) لـ Goltz الذي توفي في العراق

تساءل الجمع ، ماذا عند المسلمين من شأن ، هذه الحفنة القليلة التي كاد يبتلعها الخضم اللجيء من جيوشنا ، وهي في صلابة ، وروح محاربة بحيث لم ترتد ، ولم تفكر في الهزيمة ، ثم لا يبالي الفرد منهم في حومة الوغى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ؟

ترى ماذا يكون النبأ ؟ لاشك أنه المدد ، لا جرم أن جيوشاً كثيفة قد بعثها محمد لتعمل فينا قتلا وفتكا ، فإذا كنا على كثرة عددنا وضخامة عدتنا لم نستطع سحق هذه الكتيبة الصغيرة فكيف إذا تساوينا في العَدد ، وتكافأنا في العُدد ؟ . . الموت . . الفناء . . الهزيمة . . الاندحار . .

ذلك كان حديث معسكرات الروم ، وذلك ما كان يهمس به كل لسان وما كان يشتغل به تفكير كل مشير من قادتها وعمدائها ، ولما رأوا أن المسلمين يغيرون مواضعهم ، ويتنقلون من جهة إلى جهة ، ظنوا أنهم يريدون تطويقهم وعزلهم عن بلادهم من الخلف ، فانسحبوا بدورهم ، وكذلك صنع المسلمون ، وبذلك كان الفرق بين العسكرين كبيراً بحيث لم تسمح المسافة بكرة من أحد الفريقين على الآخر ، وكان الرسول (ص) قد أخبر أصحابه بأمر قتل القادة الثلاثة ثم قال : « فأخذ الراية سيف من سيوف الله ذلك هو خالد بن الوليد ففتح الله عليه » .

عودة خالد واستقباله أسوأ استقبال

ولما رأى خالد انسحاب الروم خشي إن هو كر عليهم أن يصاب بهزيمة ساحقة ، فعاد من فوره إلى المدينة .

ويقال إن أهل المدينة ، استقبلوا الجيش العائد أسوأ استقبال وهتفوا : الفُـرَّار الفـرار .

وبالغ بعضهم ، وأغرب فى الإساءة فحثا التراب على رأس الجيش ، ولـكن الرسول (ص) زجر أولئك المستقبلين ودافع عن خالد وجيشه فقال : « ليسوا بالفُـرَّار ، ولـكنهم الـكـَرَّارُ إن شاء الله » .

شيطان الشعر :

أتينا على موقعة مؤتة مفصلة وجدير بنا ألاّ نمر عليها دون أن نسجل قصيدة عبد الله بن رواحة آخر الشهداء الثلاثة من القادة الأربعة ، فى وصف المسير إليها ومقدماتها قال :

جلبنا الخيل من أجإٍ (١) وفرع ... تغرّ من الحشيش لهـا العـكوم
حذوناها من الصوّان سبتا ... أزلّ كأن صفحته أديم
أقامت ليلتـــين على معان ... فأعقب بعد فترتها جمـــوم
فرُحنـا والجياد مسوّمات ... تُـفنّـسُ فى مناخرها الـسَّموم
فلا ـ وأبى مآب ـ لنأتينهـا ... وإن كانت بهـا عرب وروم
فعبـأنا أعنتهـا فجـاءت ... عوابس والغبار لهـا بريم (٢)

أما حسان بن ثابت فقد لقب جعفر بذى الجناحين إشارة إلى ما أصيب به من بتر ذراعيه أو من حديث الرسول أنه رأى جعفر فى الجنة وله جناحان يطير بهما قال :

(١) جبل طى

(٢) زاد المعاد فى هدى خيرالعباد لابن القيم الجوزية أحد أئمة المصلحين فى القرون الوسطى

فلا يبعدن الله قتلى تتـابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله هم خير عصبة ... تواصوا (١) وأسباب المنية تنظر

لائمة ... ؟ :

إى وربى ما رأيت أولئك البلهاء من شبابها وأمة من كهولها يتخطفون أفانين الهراء ، ولغو الأحاجى والأمثال من صبيان الباعة ، إلا والتمست فى يدى موضع السوط كى ألهب به أبدانهم ، أو يثوبوا إلى أمر من الأمر سوىّ وكأيّن من جماعة من أولاء ثقفتهم إلا رأيت بأيديهم أوراقا أملتها نفوس خربة ورءوس أفنة (٢) حتى لقد أفسدت الأذواق العربية ، وهزهزت العواطف الشرقية الإسلامية ، وجعلت الوقت الذى قال عنه الشافعى : « إنه كالسيف إن لم تقطعه قطعك » ، مسرحا للغو والعبث .

سمعت بعضهم ينقدون فى حذلقة نواسية ، وشنشنة أخزمية بدعوى أنها أفكار عصرية وآراء جامعية « لِمَ لَمْ يُـوَلِّ محمد خالداً قيادة مؤتة بادىء ذى بدء وكفى المؤمنين به التضحيات الجسيمة ، ولأواء الهزيمة ؟ » وليس لهذه العبارة ردسوى قولنا : اقرأوا وأعملوا النظر قبل أن تجعلوا من سير الأبطال

(١) لعل كلمة تواصوا هذه يريد بها رضى الله عنه خطبة عبدالله بن رواحة قبيل لقاء العدو حين خشى الناس على أنفسهم وداخلهم الفزع من كثرة الروم ومن معهم من العرب إذ قال رضى الله عنه : (ياقوم . والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ــ ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة ، وقد اشتدت حماستهم وحميتهم وقالوا (قد صدق والله ابن رواحة) .

(٢) مثل الصحف التافهة والمجلات الخليعة ، والرسائل التى تعرض لجسام الأمور فى إيجاز وغموض مخلين .

أحاديث مستملحة ، وأقاصيص للتفكهة ، ومن قضايا التاريخ متاهة للخيال ، يتخبط فيها المقلون خبط العشواء فى الليلة الظلماء .

لقد مر على إسلام خالد شهران وأيام معدودات ، فلم يكن من سداد الرأى أن يولى القيادة وهو حديث عهد بدين لم يتعمق فيه ولم يسبر أغواره وفى المسلمين كل عريق رئبال عند الطعن والنزال ، فأين هو من جعفر فى سابقته بالهجرة ، وإمامته المسلمين فى أقاصى الحبشة ؟ وفيهم مثل زيد مولى رسول الله (ص) الذى آثر أن يكون له رقيقا عن أن يثوى إلى أبيه حراً عتيقاً ، وكان من ذلك أن النبى (ص) تبناه ، كى يعوضه أباه ، فكان أجدر بالقيادة ، وقد رزق الشهادة ، فأصاب الحسنى وزيادة .

الفتـــح

قلنا إن الرسول انتهى عام الحديبية من عقد صلح بينه وبين قريش ترك الباب مفتوحا لمن أراد أن يكون حليفاً مع أحد الفريقين فدخلت خزاعة فى حلف المسلمين ، ودخلت بنو بكر فى جانب قريش ولأمر أراده الله وقدره وأخبر نبيه به بقوله (١) « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وقعت الواقعة ، وحدثت القارعة ، وتجدد الخصام بين بكر وخزاعة وثار النزاع القديم الداء ، واحتكم السيف بين الألداء ، فما كان من قريش إلا أن أمدت حلفاءها بالسلاح ، وزودتهم سراً بالفرسان والمقاتلين ،فاستنصرت بنو خزاعة بحلفائها ، واتهمت قريشاً بإعانة أعدائها ، وجاء وفدها فى أربعين يشكو إلى النبي (ص) ما حُل بها ، ويقصون أمر قريش على مسامع المسلمين ، فخرجت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة أخذها الوفد أوثق من صك يمليه : « لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر منه نفسى » .

أبو سفياں يريد المدينة

وعاد الوفد إلى قومه مزوداً بهذا الوعد الصادق ، ويرى بعض الكتاب أن قريشا كانت تمد حلفاءها دون علم أبى سفيان زعيمها ، فلما أخبر بذلك وهو رجل بعيد النظر توقع أسوأ العواقب ، فامتطى ناقة وخرج مسرعا

(١) نزلت هذه الآية فى عام الحديبية حتى إن عمر وكان معارضا فى الصلح بقوله : ألسنا على الحق يارسول الله ؟ .. فلم نعط الدنية فى ديننا ؟ ! ! قال عند نزولها : (أو سماه الله فتحا ؟) راجع شرح النووى لصحيح مسلم وفتح البارى على صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى .

يريد المدينة ولقى فى الطريق وفد الخزاعيين عائداً ، فحاول أن يعرف فى أى جهة كان هؤلاء الفرسان ولكن أولئك كتموا عنه كل شىء . ولم يبوحوا له بغايتهم ، ولكنه عرف من بعر إبلهم نوع طعامها وعرف أنه من طعام إبل المدينة فأدرك على الفور خطورة النتائج ، وعرف أن الحرب قائمة لا محالة بين المدينة ومكة ، ثم حث الخطى وأسرع المسير حتى بلغ يثرب ونزل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله (ص) :

ازورار فاطمة

دخل على ابنته يسلم عليها فأعرضت عنه ، فأخذ مقعده إلى جانبها على طنفسة كان يجلس عليها رسول الله فانتزعتها من تحته وقالت : إن هذه لرسول الله (ص) ولا ينبغى لكافر كأبى سفيان أن يجلس عليها فخرج الرجل أسيفاً حزينا وهو يتمتم « لقد أصاب ابنتى بعدى شر » .

ثم ذهب إلى المسجد ليلاقى رسول الله هناك ، فأعرض عنه ولم يرد جوابا ولم يحسن له لقاء ، فازداد المسكين حزنا على حزن وذهب إلى أبى بكر يلتمس منه الشفاعة عند النبى (ص) ولكن أبا بكر رفض أن يكون شفيعا فيما يأباه رسول الله ، فما كان منه إلا أن ذهب إلى عمر علّه يجد لديه من اللين ما يكفكف به أساه على ما فقد من هيبته وهو من هو فى العرب شرفا وزعامة!

ولكن ظنه خاب إذ لقيه عمر شر لقاء قائلا له : « أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ! »

ياسبحان الله لقد قدر لأبى سفيان أن يذل وترغم أنفه على هذه الصورة هذا الرجل الذى شهد تعذيب المسلمين ثلاثة عشر عاما فى مكة يذوقون فيها

الويل والمر ، حتى لقد تشرد كل منهم فى واد فمن مهاجر إلى الحبشة إلى مهاجر إلى المدينة ، وإلى الطائف ، ثم حضر المواقع التى قامت بين قومه وبين المسلمين وكان هو موقداً نارها ، ومذكيا أوارها ، حتى وقف على جبل أحد فى معركته ونادى بأعلى صوته : أفيكم محمد ؟ أفيكم ابن أبى قحافة ؟ (يعنى أبا بكر) أفيكم ابن الخطاب ؟ والرسول يقول لا تجيبوه فلما لم يرد عليه أحد ظنهم قتلوا فقال : « إذا كان هؤلاء قد هلكوا فعلام تقاتلون ؟ » ثم عاد فصاح : اعْلُ هُبَل ! فقال الرسول : أجيبوه [1] فصاح المسلمون : الله أعلى وأجل ، فرد أبو سفيان : لنا عزى ولا عزى لكم فقال المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم » لنترك هذا الماضى الذى لا يشرف أبا سفيان وأخيراً خرج الرجل من عند عمر يلهث قاصداً على بن أبى طالب .

أبو سفيان - يا على . إنك أمسّ القوم بى رحما وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا أن تشفع لى عند رسول الله .

على - ويحك يا أباسفيان . والله لقد عزم رسول الله على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه أبو سفيان يلتفت إلى فاطمة ويقول :

- يا ابنة محمد . هل لك أن تأمرى بنيك هذا « يعنى الحسن » فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر .

فاطمة تعرض عنه قائلة :

---

(١) هذه المعركة الكلامية تبين لنا مبدأ أخلاقيا جليلا من هدى نبينا صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة (كان رسول الله (ص) لا يغضب لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فكان يغضب لله وكان إذا غضب انتفض عرق بين حاجبيه فكان يرى أثر الغضب فى وجهه بذلك) .

والله ما بلغ بى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله .

أبو سفيان لعلى بعد أن زفر زفرة من اللهب :

ـ يا أبا الحسن . إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى .

ـ والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

ـ أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

ـ لا والله ما أظنه . . . ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فلم يجد أبو سفيان إلا أن يمضى لتنفيذ هذه المشورة وهو يائس كل اليأس ودخل المسجد ووقف بين الناس وهم معرضون عنه غاية الإعراض وهتف بأعلى صوته :

ـ أيها الناس . إنى قد أجرت بين الناس . . . وهرول مسرعا إلى بعيره فاعتلاه فى رعدة من الحمى وعاد كسير النفس مكتئب الخاطر ، بعد أن أذله الله فلم يدع بابا إلا وطرقه ، حتى استشفع بالنساء والصبيان ، فسبحان مغير الأحوال .

وباتت قريش ترتقب ما يأتى به الغد من أحداث جسام ، وقد اشتد ساعد محمد ولن تقف فى طريقه بعد اليوم قوة على ظهر الأرض ومن أصدق من الله قيلا « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وأخبرها أبو سفيان بما جرى له فى المدينة فقالوا : ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك .

ثم عادوا فيما بينهم يتشاورون .

الفرق الأربع

أجل . عادت قريش تتشاور فيما يخبئه لها القدر من شقاء ، فطالما أنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل ، ثم أنفقوها لتكون عليهم حسرة ثم يغلبون فلم ينفعها ما أمدت به بكرا من سلاح ومحاربة ، بل كان ذلك من عوامل اقتراب النهاية ، ووضع حد للمهرجين والغوغاء من قريش وحلفائهم ممن يلعبون بالنار ، ويتصدون للتيار .

هذا هو رسول الله قد استشار أصحابه وأخذ برأى عمر فى غزو مكة ثم يستعرض جيشه الزاحف فى اليوم الثانى من رمضان (١) وقد قسمه إلى أربعة ألوية على رأس كل لواء منها غطريف حرب ودهقان صراع .

١ ـ الميمنة . وقيادتها إلى خالد بن الوليد وقد صدرت إليها أوامر النبى صلى الله عليه وسلم أن تقتحم مكة من أسفلها .

٢ ـ الميسرة : وقيادتها إلى الزبير بن العوام وكان عليها أن تدخل مكة من شماليها .

٣ ـ الأنصار وقيادتها إلى سعد بن عبادة وكان عليهم أن يدخلوها من الجانب الغربى .

٤ ـ الحسر : وقيادتهم إلى أبى عبيدة بن الجراح وهؤلاء أمروا أن

(١) روى الواقدى أن خروجه كان فى اليوم الثانى عشر من رمضان ورجح بن الأثير فى الكامل ج ٢ ص ٩٧ أنه فى اليوم العاشر منه ، وأخرج علماء السيرة عن ابن عباس أنه كان فى اليوم الثانى وهو ما أختاره وأرجحه وذلك لأن الفتح كان فى السابع عشر من رمضان وأقل زمن يمكن لجيش كبير كهذا أن يقطع فيه المسافة بين البلدين أسبوعان ولا يكفى أسبوع مطلقا على حد منطق (الكامل) وبالأولى لا تكفى خمسة أيام على حد رواية الواقدى .

يدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند .

الكتيبة الخضراء . أو الحرس النبوى

وقد اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسير فى لواء أبى عبيدة وحوله كتيبة تلبس أقمصة خضراً ، ومجهزة أتم الجهاز من لأم ودروع ودروق وكافة أدوات الطعن والرمى ، وتشبه فى نظامها وشكلها جماعات الفدائيين ، أو فرق الموت وكان هؤلاء من خيرة المهاجرين وشيوخهم ومن أهل العلم والقرآن وليس فيهم إلا من :

إذا أنذر الأملاك حربا تزلزلت ... ممالكهم من بأسه أى زلزال
وقال الورى يا ويح من برزوا له ... وياويل مغرور لنارهم صالى

مسير الجيش فى حذر . . . الجاسوسية

خرج هذا الجيش اللجب الذى لم تشهد الجزيرة مثله يتراوح بين عشرة آلاف (١) واثنى عشر ألفاً ، وخرج الرسول إلى راحلته فامتطاها وأذن فى الناس بالمسير حتى إذا كانوا فى الطريق دعا ظهراً بإناء من الماء فشربه وكان ذلك سنة للقوم كى يفطروا ثم أمر الرسول هؤلاء الرجال جميعاً أن يخفوا أدوات الحرب ، وأن يتظاهروا بما يبدو عادة على القوافل المدنية من سفر وارتحال ، وأغراض مختلفة هى دون الحرب وامتشاق الصمصام ، وأعد نفراً من ذوى الدهاء والفطنة ليرصدوا للجواسيس حتى لاتصل أخبار

(١) عشرة آلاف إذا لم نضف إليها من انضم من القبائل ويبلغ عددهم ألفين ومن روى اثنى عشر ألفا أضاف إليها أولئك .

الزحف إلى ندوة مكة ، وعلى رأس هذا الفريق (١) على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود وبعد أخذ أسباب الحذر والحيطة ، رفع النبى يديه إلى السماء ودعا ربه فقال :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها »

وكان قد انضم إلى الجيش فى الطريق من قبائل العرب جماعة جعلها النبى مع خالد بن الوليد وكانت بمثابة فرق غير نظامية تجيد الكر والفر ولكن فى غير صفوف العسكر وليس أقدر من خالد على قيادة هؤلاء وهم مزينة وغفار وأسلم وسليم وجهينة .

اقتراب الجيش من مكة

حتى إذا بلغ الجيش « مر الظهران » على أربعة فراسخ من مكة ، أقام المسلمون معسكراتهم وانتشروا فى أنحاء الوادى ، وأوقدوا نيرانهم حتى بدت الصحراء كأنها أتون ملتهب ، وتطاير الشرر يحمله الهواء إلى بطن مكة فتحس قريش بالخطر يقترب منها ، ولكن لا تدرى من أى ناحية سيدهمها وأوفدت أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حكيم يتنطسون الأخبار ، وكان العباس عند رسول الله ثم خرج حائما حول مكة ممتطيا بغلة ابن أخيه حتى لا يقربه أحد بأذى .

(١) كان من أمر هذا الفريق أن ضبط امرأة تدعى كنوداً ومعها رسالة تخفيها فى شعرها من حاطب بن أبى بلتعة الى عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وكان حاطب من المهاجرين السابقين ومن أهل بدر واعتذر عن فعلته الذميمة وقبل الرسول عذره وتبين أنه لم يفعل ذلك ارتدادا عن دينه ولا رضا بالكفر ، ولكن أراد أن تكون له يد عند قريش ليحموا أولاده وماله عندهم إذ لم تكن له فيهم قرابة تكفيه ذلك وقد نزلت فيه الآية الاولى من الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة الخ)

لقاء . . . ونجاة

سار العباس بين تلال مكة وقد جن الليل ، وتناوحت الرياح على سفوح الجبال تحف بها حفيفها بالشجر ، وفى هذا الهدوء الذى لا يشق سكونه سوى الهواء يتمايل كالزهر الأقاحى ، إذا بأصوات على أجنحة الأثير يرن صداها فى أفق الوادى الرهيب ، وتطرق أذن العباس عم رسول الله فيقف هنيهة ساكنا لا يتحرك حتى ينماز له الصوت وإذا به حديث وحوار :

أبو سفيان ـ ما رأيت نيرانا قط ولا عسكر كالليلة .

بديل بن ورقاء ـ هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

أبو سفيان ـ خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .
وهنا صاح العباس بعد أن استعد للقاء القوم :

ـ يا أبا حنظلة (كنية أبى سفيان) .

أبو سفيان ـ أبا الفضل ؟!!

العباس ـ ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة .

أبو سفيان ـ فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟

فأردفه العباس على بغلة رسول الله وأطلق العنان لها فركضت حتى اقتربت من خيمة رسول الله وما هو إلا الصباح حتى كان أبو سفيان قد أسلم بعد أن هدده العباس بقطع رأسه إذا لم يقبل الحق ، وينزع ما فى نفسه من سخائم الجاهلية النافرة .

وأراد العباس أن يلتمس من الرسول أن يجعل لأبى سفيان شيئا يشبع به حبه للزهو والسلطان فقال الرسول : « من دخل الكعبة فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن . ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن » .

وأمر الرسول أن يؤخذ أبو سفيان فى الطريق الضيق بين شعبى الجبل ليمر عليه الجيش حتى يراه ليطمئن فلا يغدر ، إذا علم أن لا طاقة له بهذه القوة ، حتى انتهى العرض وكان المسلمون قد برزوا بكامل هيئتهم واستعدادهم وقد تسربلوا الحديد وامتطوا الدهم وهنا همس أبو سفيان وقال : « لا أحد له بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » .

خالد يؤدب عصاة قريش وبكر :

لعمر الله ما أبعد نظر الرسول وأدق إدراكه واختياره . هذا ابن الوليد يقتحم مكة من أسفلها ، عند أشد الأحياء عداوة وجاهلية وعنادا واستكبارا وهذه بكر قد تجمعت عند أسفل الوادى ومعها قريش ومحاربوها يرابطون بالخندمة ، وما إن تراءى لخالد بن الوليد هؤلاء المردة من عفاريت العرب وعلى رأسهم عكرمة وصفوان بن أبى لهب حتى نادى بأعلى صوته « هذا أنت يابن حمالة الحطب » وشد شدة عظيمة على القوم الذين جمع بينهم الغرور المضل ثم وقعت الملحمة الأخيرة لتدين مكة للطريد بالأمس والفاتح اليوم .

نموذج من الغرور المضحك

أعد حماس بن قيس أخو بنى بكر سلاحاً عظيما فتعجبت امرأته فدار بينهما هذا الحديث .

- ما تصنع بهذا السلاح ؟!
- أقاتل به محمداً وأصحابه !!
- والله ما أرى أن أحداً يقوم لمحمد وأصحابه ! !
- والله إنى لأرجو أن أُخدمك بعضهم .

ثم تصدى لخالد بن الوليد مع من تصدى وقاتل حتى انهزم وفر إلى بيته وقال لامرأته :

- أغلق على بابى « لكى يكون آمنا » .

فقالت - أين الخادم الذى كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو رأيت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
وحيث زيد قائم بالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه ... لم تنطق فى اللوم أدنى كلمه (١)

حرص النبي على حقن الدماء

دخل رسول الله مكة من أعلاها وعلى رأسه عمامة سوداء وقد سمع أحد قادته وكان سعد بن عبادة ينادى : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » فأرسل عليا ليأخذ الراية منه ويعطيها لولده قيس بن سعد ، وكان فتى بدينا كبير الجسم ولكنه كان وديعاً هادئاً ، ولم يجد أحد من أصحاب

(١) معجم البلدان ، وتاريخ الطبرى ج ٣ والكامل لابن الاثير ج ٢ .

الألوية مقاومة فى أثناء الزحف سوى (خالد) فإن اختيار الرسول له أشد الأحياء عنادا كان شهادة عملية وتزكية صريحة لمقدرته ، ومن أصدق من رسول رأيا وأعدل منه حكما ؟ حتى كان النبي بذى طوى ورأى مكة لاتقاومه استوقف كتائبه ووقف على راحلته وانحنى لله شكراً حتى دخل مكة منحنياً على هذه الصورة الرائعة مظهر العبد الذليل لربه الذى فتح عليه فتحه المبين .

وفى بعض طرق البلد رأى امرأة مقتولة فقال لحنظلة الكاتب من قتلها ؟ قال « خالد بن الوليد » فقال له « أدرك خالداً فقل : (١) إن رسول الله ينهاك ان تقتل امرأة أو وليداً او عسيفا (والعسيف الأجير) وبعث إلى خالد يقول ماحملك على القتال ؟ فقال يارسول الله أتانى رسولك يأمرنى بذلك ، فقال للرسول ماحملك على ذلك ؟ فقال : « أرأيت إن كنت أمرتنى أن آمره ألا يقتل احداً ، فذهب وهمى إلى أن أقول له : « اقتل من لقيت لشىء أراده الله » فكف عنه .

ثم أرسل الرسول إلى قريش فجمعهم ووقف بينهم ونادى : مه غلبتم ؟

قالوا - غلبنا والله .

قال - ماتظنون أنى فاعل بكم .

قالوا - خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم .

قال لاتثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء . وطاف رسول الله بالبيت وبيده قضيب يضرب به الرصاص الذى شدت به الأصنام إلى حوائط المسجد فتتكفىء على وجهها وديست الآلهة بالأقدام .

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى .

واختلف فى فتح مكة هل كان عنوة ، أم صلحاً ؟

فالقائلون بأنها فتحت عنوة يستدلون بقتال خالد ، وملاقاته لأشد أبناء مكة وحماتها عناداً وأغلظهم أكباداً ، وإراقة دماء اثنين من أبرار المؤمنين ، واثنى عشر مقاتلا من المشركين ، والذين يقولون بأنها فتحت صلحاً ، يمرون على حملة خالد كما يمرون على عمل من الأعمال الإدارية التى يبررها منطق المحافظة على النظام . ويسوغها تأديب العابثين بالأمن ، ممن ينتظر أن يعيشوا فى الأرض فساداً بعد أن سادت تلك الربوع مبادىء الإسلام ، وتضعضعت شوكة الآلهة واضمحلت قداسة الأصنام ، سيما وقد أفتى أبو سفيان بتسليم مكة . وعلى أى اللونين كان الفتح ، فإن للتاريخ هنا وقفة إعجاب بخالد . ذلك لأنه كان إلى جانب الرسول بمثابة السيف إلى جانب العقل ، يرد من أخفق العقل فى هدايته إلى حكم السيف فيأطره على الحق أطراً سنة الله أبداً ولن تجد لسنة الله تبديلا .

نجم لا يأفل ... سيف ومصحف :

فى هذا الظرف الذى تقاس فيه مكانة المسلم فى صفوف عامة الجند بمبلغ ما وصل إليه يقينه بالدعوة المحمدية الجديدة ، وإيمانه بها ، وفناؤه فيها ، فى جماعة نعتوا بهذا الوصف الخالد « أشداء على الكفار رحماء بينهم » نرى خالداً قد وثب وثبة هائلة فبعد إسلامه مباشرة كان القائد المختار ، إذا ما ثار

الغبار ، منزلا يندر من يبلغه ، كقوة من قوى الحق يقذف به على الباطل فيدمغه .

وهنا يبدأ نجم خالد فى الظهور إلى غير أفول ، هكذا شاء الله . وهنا نحس بأن عود الإسلام قد تغذت أوصاله من عناصر القوة حتى كرعت ، لم تتغذ بالعدد الوفير ، ولا بالجم الغفير ، ولو كان كذلك ما تجاوزت الأعين ذات خالد موموقاً مرموقاً ، وإنما تغذى - عود هذا الدين - حتى استغلظ فاستوى على سوقه يعجب الغارس الزارع - الله ورسوله - بأفراد يحصون عداً . هذا له فى ميدان الفقه والحكمة الصدارة والريادة ، وذاك فى ميدان الحرب له الراية والقيادة ، سيف ثم مصحف ، ومصحف ثم سيف .

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف ... يقيم ظبـاه أخدعى كل مائل
فهـذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهـذا دواء الداء من كل جاهل

العزى ...

تمر الحوادث سراعاً فما أنا بقادر على أن أركض معها فى سرعة طائشة ، فبينما ترانى أعدو فى أثر خالد عند حدود الشام إذا بالحوادث تقذف بى فى خطفة البرق إلى حيث يجثم على أعناق بنى شيبان وفى عقر بيت فى بطن نخلة (١) امرأة سوداء شمطاء شوهاء شاء غىّ الجاهلية أن تُعبد فى غفلة من العقل ، يسجد لها هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، يبعد مكانها عن مكة بنحو ليلتين ، وقد استتب الأمر فى مكة فأراد رسول الله أن يمحو آثار الوثنية

(١) حى من أحياء قريش راجع زاد المعاد لابن القيم والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ -

من تخومها فبعث خالداً على رأس ثلاثين فارساً ، فلما علم سادنها بمسير خالد وهو الرجل الذى لا يرحم علق على حائطها سيفه وأسند فى الجبل الذى هى إليه وأصعد وهو يقول :

أيا عُز شدّى شدة لاشَوى لها   على خالد ألقى القناع وشمرى
ويا عُز إن لم تقتلى اليوم خالداً   فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

ولكن خالداً قد عملت معاوله فى وكر الخرافة فتركه قاعاً صفصفاً ، ثم عاد (١) إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأمره أن يعود ثانية إليها ، حتى يظفر بها ولما عاد رأى هذه المرأة تخرج إليه من تحت قدميه ، ثم تهجم عليه تريد قتل البطل ، ولكن لم يمض مقدار ما تطرف العين حتى كانت مجندلة على الأرض ورجال خالد يأخذون من عنقها وصدرها ما اتشحت به من ذهب وجوهر ثم يقول وهو يشيعها :

يا عزى كفرانك لا سبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

ثم عاد خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم ما لها وقال هذه هى العزى لقد أصبتها ولن تعبد بعد اليوم (٢) وكان بعثه لها لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة .

إلى هنا ينتهى فصل من فصول الجهاد فى سبيل تركيز العقيدة وتأمينها فهل لخالد أن يستجم قليلا من عناء الكر والفر ؟ . . لا . فما هو بالرجل

(١) تاريخ ابن إسحاق ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ .

(٢) تاريخ ابن جرير الطبرى ج ٣ .

الذى يهنأ بالرقود ، أو يهدأ بالقعود ، فما له من ديار ، سوى ظهر الخيل والغبار .

الى بنى جزيمة . . .

كان مع خالد من قبائل العرب بنو سليم بن منصور ، وبنو مدلج بن مرة وغيرهم ، عندما أرسله الرسول داعياً إلى الإسلام فى بنى جَذيمة ، حتى نزلوا جميعاً (الغُميصاء) (١) وكان عددهم خمسين وثلاثمائة من جحافل القبائل التى أتينا على ذكرها ، فلما نزل عليهم أعمل فيهم قتلا وفتكا ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نعت خالداً فى هذه الوقعة ، بأن فى سيفه رهقاً ، ولسوف ندرك من سياق الحوادث أن خالداً نحا فى عمله هذا نحواً يجعل التاريخ يقف منه موقف النائب العام لا موقف محام ، والذى يعزينا خلال هذا الأسف أن خالداً كان حديث عهد بالإسلام ، لا تزال بقية من رواسب الجاهلية تنزوى فى تضاعيف نفسه ، فتحدث من جرائها أمور قد لا يكون خالد واعياً لها Unconcianse على حد اصطلاح علماء النفس .

العوامل الأولى للحوادث

ترجع هذه الحوادث إلى ما قبل ظهور الإسلام . وذلك أن عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن والفاكه بن المغيرة (عم خالد) وعفان بن أبى العاص أبا عثمان قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من

(١) موضع فى بادية العرب كانت تسكنه بنو جذيمة .

بنى جذيمة بن عامر كان قد هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ولقيهم بأرض بنى جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت ، فأبوا عليه فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذه ، وقاتلوه ، فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة ونجا عفان وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه وعوف فانطلقوا به ، ثم قتل عبد الرحمن بن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه ، فهمت قريش بغزو بنى جذيمة . فقالت بنو جذيمة : ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا (أى تشاور) إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان قبلنا من دم أو مال ، فقبلت قريش ووضعت الحرب أوزارها (١) .

على أن رواية أخرى تقول :

إن سبب قتل بنى جذيمة القرشيين أن بنى عامر وكان يقال لهم : « لعقة الدم » وكانوا ذوى بأس شديد جاءوا فقالوا للقرشيين : إياكم أن يكون معكم رجل من « فهم » لأنه كان له عندهم ذحل (٢) . قالوا : لا والله . ما هو معنا وهو معهم . فلما راحوا أدركهم العامريون ففتشوهم فوجدوا الفهمى معهم فى رحالهم فقتلوه وقتلوهم وأخذوا أموالهم فقال راجزهم :

إن قريشاً قتلت وعاده   نحن قتلنا منهم بغاده
عشرين كهلا ما لهم زياده

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ .

(٢) ذحل أى ثأر .

ثم تقول الرواية : وأرادت قريش قتالهم فخذلتهم بنو الحارث بن عبد مناة فلم يفعلوا شيئاً ، وكان خالد بن عبيد الله أحد بنى الحارث بن عبد مناة فيمن حضر الموقعة هو وضرار بن الخطاب أخو عمر . فأشار إلى ذلك ضرار بقوله :

دعوت إلى خطة خالداً   من المجد ضيعها خالد
فوالله أدرى أضاهى بها   من الغم أم صدره بارد
ولو خالد عاد فى مثلها   لتابعه عنق وارد

وقال أيضاً (١) :

أرى ابنى لؤى أسرعا أن تسالما   وقد سلكت أبناؤها كل مسلك
فإن أنتمو لم تثأروا برجالكم   فذوقوا الذى أنتم عليه بمدرك
فإن أداة الحرب ما قد جمعتموا   ومن يتق الأقوام بالشر يترك

ولا يعنينا أى الروايتين كان الأصح .

عامل آخر

وإن حوادث من هذا القبيل قد وقعت قبل الإسلام بين العشيرتين بنى جَذيمة بن عامر وبنى سُليم وكان الآخرون مطالبين بدم مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وأخوته كرز وعمرو والحارث وكان بنو جَذيمة قد قتلوهم فى موطن واحد ، وبنو سليم كانوا من رجال خالد بن الوليد عند ما أرسله

(١) الأغانى ج : ٧ .

الرسول داعياً فى بنى جذيمة ، وينفى بعض الصحابة كابن عمر أن الرسول أرسل خالداً ليقاتلهم وإنما أرسله ليدعوهم .

يا قوم ... إنه خالد

ولما صبّحهم (١) خالد فى ذلك اليوم ورأوا معه بنى سليم زادهم ذلك نفوراً ، فقال لهم خالد (٢) :

— ما أنتم ؟

قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحتنا وأذّنا فيها .

قال : فما بال السلاح عليكم ؟

قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم !!

فقال خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا فصاح رجل من بنى جذيمة يقال له (جَحْدم) :

— ويلكم يا بنى جذيمة . إنه خالد . والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . والله لا أضع سلاحى أبداً .

فأخذه (٣) رجال من قومه فقالوا : ياجحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟

---

(١) الاغانى ج : ٧ .

(٢) زاد المعاد .

(٣) ابن هشام ج ٣ وابن جرير ج٣ .

إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد ، وعند ذلك أمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف .

ولما رأى الرجل ما وقع نادى : يا بنى جذيمة قد ضاع الضرب قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه .

وتقول سلمى بنت عميس :

وكم غادروا يوم الغُميصاء من فتى	أصيب فلم يجرح وقد كان جارحاً
ومن سيد كهل عليه مهابة	أصيب ولما يعلم الشيب واضحاً
ولولا مقال القوم للقوم : أسلموا	للاقت سليم يوم ذلك ناطحاً
لماصعهم بشر وأصحاب جحدم	ومرة حتى يتركوا الأمر صابحاً

مسئولية خالد . . . بحث وتمحيص

يرجع عمل خالد بن الوليد فى بنى جذيمة إلى ثلاثة احتمالات نأتى عليها ثم نرجح ما تضافرت الشواهد على ترجيحه .

الاحتمال الأول :

أن يكون خالد رأى القوم وعليهم سلاحهم وعرف عن القوم الغدر والخديعة ، فأراد أن يغرر بهم بحيلة تفوق خدعهم ، حتى إذا نزع منهم السلاح بطش بهم البطشة التى لا يستطيعون بعدها أن تكون لهم قيامة فى وجه الإسلام ، وهذا الاحتمال لا دليل عليه إلا من جهة ما حدث من بعضهم فى الجاهلية مما أشرنا إليه فى قصة قتل الفاكه بن المغيرة وقد انتهى الأمر فيه بأن عقلت بنو جذيمة ما كان لقريش من دم أو مال .

الاحتمال الثانى :

أن يكون القوم قد طلب منهم أن يدخلوا فى الإسلام فترددوا فيه بعد نزع سلاحهم ، ولم يحسنوه . فأراد خالد أن ينتقم منهم على هذا التقصير فأعمل فيهم السيف وهذا الاحتمال له أدلة تاريخية إلا أنها لا تعفى خالداً من مسئولية خطئه فى تقدير الأمر ، وهل هو يستحق أن يشهر من أجله السيف ؟ . . . أم كان يكفى فيه مجرد الإرشاد والنصح . لما قلناه من أن النبى لم يرسل خالداً مقاتلا ، وإنما أرسله داعياً .

أخرج الحافظ البخارى حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

خالداً إلى بنى جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا ، وجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل منا أسيره . فقلت والله لا أقتل أسيرى ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له فرفع يديه وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ثم دعا النبى على بن أبى طالب بعد فراغه من حنين : اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك وبعث معه بإبل وورق (١) فخرج على حتى جاءهم فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه ليدى لهم ميلغة الكلب حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه (أى دفع ديته) بقيت معه بقية من المال فقال لهم علىّ حين فرغ منهم :

— هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم . قالوا :

— لا . قال :

— فإنى أعطيتكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون .

ثم رجع إلى رسول الله فسأله . فقال على :

— قدمت عليهم فقلت هل لكم أن تقبلوا هذا الجمل بما أصيب منكم من القتلى والجرحى وتحللوا رسول الله . قالوا :

(١) ورق : بفتح الراء المال وبكسرها الفضة .

— نعم . فقلت لهم :

— فهل لكم أن تقبلوا الثانى بما دخلكم من الروع والفزع قالوا :

— نعم . فدفعته إليهم وجعلت أديهم حتى إنى لأدى ميلغة الكلب وفضلت فضلة فدفعتها إليهم فقال رسول الله :

أفقبلوها ؟ قال : نعم . قال : فوالذى أنا أعبده لهى أحب إلى من حمر النعم (١) .

الاحتمال الثالث :

أن يكون فى نفس خالد من القوم بعض غمر من سخائم الدماء ، وأحقاد الجاهلية ، وشجعه على استظهارها ما كان بين القوم وبين بنى سليم من ثأر وهؤلاء قد أخذوا يبغضونهم له ، وهذا الاحتمال له شواهد أظهرها اعتراف خالد نفسه فى موطن من مواطن الجدل والملاحاة ، فقد سمعناه فى رواية لابن إسحاق سندها عنده غير متصل وفيه مجهول حيث قال : وقد كان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف ـ فيما بلغنى ـ (كذا) كلام فى ذلك فقال عبد الرحمن :

— عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام ، فقال خالد :

— إنما ثأرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن :

— كذبت . قد قتلت قاتل أبى ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة (حتى كان بينهما شر) فبلغ ذلك رسول الله فقال مهلا يا خالد .

(١) وأخرج هذا الحديث النسائى بسنده عن عبد الرزاق أيضاً وأحمد في المسند بنفس السند وفيه زيادة أن الرسول بعث خالداً داعياً ولم يرسله مقاتلا .

دع عنك أصحابى فوالله لو كان لك أُحُد ذهباً ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا رَوْحته ، والحديث بهذه الرواية غير صحيح الإسناد ولكنه جاء من طرق أخرى صحيحة حققها صاحب الفتح عند رواية البخارى للشطر الأخير من الحديث وهو « لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نُصَيْفه » .

وشاهد آخر من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم قد تضافرت الأسانيد على صحته ويسمى حديث البراءة حيث رفع رسول الله يديه عندما بلغه خبر المقتلة فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » وقد تكون هذه البراءة عند من يعتذرون لخالد فى فعلته غير كافية فى إدانته إذ ليس فى الأمر ـ عندهم ـ أكثر من غلطة غلطها قائد .

بيد أن إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم علياً إلى القوم بأموال ليدى بها الدماء والأموال وقوله له : « ضع أمر الجاهلية تحت قدميك » يدل على أن فى الأمر عاملا من عوامل الجاهلية .

وقد وصل المعتذرون عن خالد إلى حد القول بأن خالداً لم يقتل الجذميين إلا عند مابلّغه رسول من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ أن يقتلهم وهذا اعتذار ضعيف روى من طريق ليست بشىء حيث قال ابن إسحاق : « وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال : ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبيد الله بن حذافة السهمى وقال : إن رسول الله أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام » وهذا الحديث مردود . إذ أنه يعارض الصحيح الذى لا خلاف فيه من أن الرسول أرسل خالداً داعياً ولم يأمره بالقتال ، وأن بعض الصحابة امتنع عن قتل من معه من الأسرى كابن عمر وسالم مولى

أبى حذيفة ، وكانا شجاعين صريحين قد أنكرا على خالد ما صنع ولو كان أمر الرسول ما أنكرا ، قال الأصفهانى :

وأفلت من القوم غلام من بنى أقرم يقال له السُّمَيدع حتى اقتحم على رسول الله فأخبره بما صنع خالد وشكاه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ فقال :

— نعم ، رجل أصفر رَبْعة ، ورجل أحمر طويل فقال عمر :

— أنا والله يا رسول الله أعرفهما ، أما الأول فهو ابنى وصفته وأما الثانى فهو سالم مولى أبى حذيفة قال أبو عمرو بن (١) المدينى شيخ الأئمة «حكاية لما أتاهم خالد قالوا صبأنا صبأنا كل طرقها مرسلات ومنقطعات(٢)».

الخلاصة ...

أن خالداً قد أخطأ فى عمله هذا خطأ فدح بيت مال المسلمين بما غرمه من ديات وعوض ، ومهما يكن من أمر السبب الأول فى هذه المقتلة فإن التاريخ يشهد لخالد بأنه كان رجلا حربياً صرفاً لقيناه فى أعظم مواقف البطولة مما تتضاءل أمامه هذه الخطيئة التى كفر عنها بيت المال ، وقد تلتقى به مرة أخرى يهفو ولكن وجه البطولة الفاتحة التى مكنت للإسلام فى

(١) من البداية والنهاية للحافظ بن كثير .

(٢) المرسل ما حذف من سنده الصحابى ، والمنقطع ما حذف من سنده واحد فأكثر والموقوف ما لم يرفع إلى الرسول والمرفوع عكسه .

الأرض ، وشيدت أعظم امبراطورية فى التاريخ ، ووضعت النواة الأولى لمجده الحربى ، يقف أمامنا حجاباً دون إدانته بالإسفاف ، ولقد يُسِف القائد ذو المثل الكبرى ولكن لكى يتحقق منطق الفطرة الإنسانية أن العصمة المطلقة لله وحده . فصدقت الفطرة كما صدقت البطولة لعمرى .

وقد أخذ الفقهاء من هذه القصة حكم القائد الذى يخطىء أن يودى عنه ما كان من دماء وأموال من بيت المال .

مجنون حبيش ...

ويل للحب ... وويل له . لم يدعنا دون أن يطل علينا من شعاب البادية ، فى قصة هذا المجنون الذى يدعى عبد الله بن علقمة الكنانى ، وهو وإن لم يبلغ من الجنون مبلغ قيس بن الملوّح صاحب ليلى العامرية - ويظهر أن فى بنى جذيمة بن عامر وفى فتياتهم وفتيانهم سر الجنون بالحب - لأن قيس بن الملوح وليلى معشوقته من بنى عامر أيضاً - إلا أن مجنون حبيش هذا لم يمهله سيف خالد حتى تسير بشعره الركبان كما سارت بقيس ، وتتغنى به الحداة كما تغنت بأخيه وقد تكون قصة مجنون حبيش أصح من قصة قيس ، فقد رأى بعض المعاصرين أن قيساً شخصية وهمية ، وضعها القصاص، ولولا أن قصة مجنون حبيش قد تضافرت الروايات على صحتها لحكمنا عليها بالوضع إلا أنها مروية عند البيهقى من طريق أبى عبد الرحمن النسائى حدثنا محمد بن على بن حرب المروزى حدثنا على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس .

وعند ابن إسحاق . حدثنى يعقوب بن عقبة بن المغيرة بن الأخنس عن

الزهرى عن ابن أبى حدرد الأسلمى قال : كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد وساق القصة . . .

وعند صاحب الأغانى ج ٧ وابن الأثير فى تاريخه ج ٢ عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى بنحو رواية ابن إسحاق .

وعند ابن إسحاق أيضاً قال حدثنى أبو فراس ابن أبى سنبلة الأسلمى عن أشياخ منهم عمن كان حضرها منهم وساق آخر القصة وهذه الرواية ضعيفة لوجود مجاهيل فى سندها .

وعند الحافظ البيهقى أيضاً من طريق الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق أنه سمع رجلا من مزينة يقال له عصام عن أبيه وساق القصة وفى سندها مجهولان فعصام مجهول الحال وأبوه كذلك .

وهذه الروايات وغيرها يؤيد بعضها بعضاً فترتقى إلى درجة الصحة ، بل إلى درجة أدعم ضروب الصحيح وهى قصة شائقة مؤثرة وسنأتى عليها فلتعفنا حبيش ومجنونها .

نظرة ، ف . . . جنونه

خرج عبد الله مع أمه وهو غلام نحو المحتلم لتزور جارة لها وكان لها ابنة تدعى حبيشة فلما رآها عبد الله هَوِيَها ووقعت فى نفسه وأقامت أمه عند جارتها وعاد عبد الله إلى أهله ، ثم عاد ليأخذ أمه بعد يومين فوجد حبيشة قد تزينت لأمر كان فى الحى . فازداد بها عجباً ، وانصرفت أمه فمشى معها وهو يقول :

وما أدرى : بل إنى لأدرى ... أصوب القطر أحسن أم حبيش؟!
حبيشـــة والذى خلق البرايا ... وما إن عندنا للصب عيش

فسمعت أمه فتغافلت عنه ثم إنه رأى ظبياً على ربوة فقال :

يا أمنــــا خبرينى غير كاذبة ... ومايريد سؤول الحق بالكذب
أتلك أحسن أم ظبي برابية ؟ ... لا. بل حبيشة فى عينى وفى أربى

فزجرته أمه وقالت ما أنت وهذا ! وأنا قد زوجتك ابنة عمك فهى من أجمل النساء ، وأتت امرأة عمير فأخبرتها الخبر وقالت زينى ابنتك له ففعلت وأدخلتها عليه فأطرق فقالت أمه : أيهما أحسن ؟ . فقال :

إذا غيبت عنى حبيشـــة مرة ... من الدهر لا أملك عزاء ولا صبراً
كأن الحشـــامر السعير تحشـــه ... وقود الغضا والقلب مضطرم الجمرا

وجعل يراسل الفتاة وتراسله فعلقته كما علقها وأكثر فيها قول الشعر وتقول الرواية إن أهلهما حجبوها عنه فازداد غرامه فقالوا لها : عديه السرحة فإذا أتاك فقولى له نشدتك الله إن أحببتنى فوالله ما على الأرض أبغض إلى منك . ونحن قريب نسمع ما تقولين فوعدته ، وجلسوا قريباً فأقبل لموعدها فلما دنا منها دمعت عيناها والتفتت إلى جنب أهلها وهم جلوس فعرف أنهم قريب وبلغه الحال فقال :

فإن قلت ما قالوا لقد زدتنى جوى ... على أنه لم يبق سر ولا ســتر
ولم يك حبي عن نواك بذلتــه ... فيسلبنى عنــك التجنب والهجر
ما أنس للأشيا ولا أنس دمعها ... ونظرتهـــا حتى يغيبنى القـــبر

حتى إذا جاء خالد إلى بنى جذيمة خرج عبد الله يبحث عن معشوقته فى ظُعُن هاربات ، يسوق بهن فتية فقال خالد :

ـ أدركوا أولئك . حتى إذا أدركوهن وقتلوا الفتيان وأخذوا الظعن رأوا شاباً أخذ منه الهزال والضعف ، فقال :

ـ إنى لست منهم إنى عشقت امرأة فلحقتها فدعونى أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بى ما بدا لكم ، قال عبد الله بن عباس فإذا امرأة أدماء طويلة فقال لها :

ـ اسلمى حبيش ، عند نفاد العيش . ثم قال :

إن يقتلونى يا حبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنت التى أخليت لحمى من دمى ... وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى

فقالت نعم فديتك !

فقال :

فلا ذنب لى إذ نحن جيرة ... أثيبى بود قبل إحدى البوائق
أثيبى بود قبل أن يشحط النوى ... وينأى خليط بالحبيب المفارق
فإنى لا ضيعت سر أمانة ... ولا راق عينى بعدك رائق
سوى أن ما نال العشيرة شاغل ... عن الود إلا أن يكون التوامق

ثم قدموه فضربوا عنقه فجاءت الفتاة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ، ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال :

« أما كان فيكم رجل رحيم »

تأمين الدعوة

عرفنا من سياق الحوادث الكثيرة التى لم تدع فراغاً من الزمن للاستجمام والسكون ، ومن سياسة أمر الناس لدى النبوة الرحيمة ، أن الرسول كان يظفر دائماً عن طريق الإقناع ، وكان لا يضع السيف إلا حيث تلجئه إلى ذلك ضرورة رد الاعتداء (١) أو تأمين الدعوة ، وقد استطاع أن ينتصر على العرب بكل الوسائل ، فتارة ، بالقوة والقهر وأخرى بالمحالفات الودية والوسائل السلمية ، وإن الهدايا الثمينة التى كان يتألف بها قلوب الناشئين فى الدين ، ولا سيما الصفوة من الزعماء ممن لم يتغلغل الإيمان فى قلوبهم كانت تحدث أحسن النتائج .

ولكن أنى لخالد رب السيف أن يسير على ذلك الآن ، فلننتظر عله يفهم هذه الخطة ، ثم عساه يتبع سياسة اللين والحب يوماً ما . ولكنه سيبقى ـ إلى حين ـ الرجل الذى لا يعرف الصفاء والمسالمة ، فلقد قتل قوماً ولكن النبى أسرع فمسح بيد رحمته على نفوسهم حتى طابت .

عاصمة الثراء ... بين العاصمتين

نحن الآن فى الطريق الممتد من مكة شرقاً بشمال ليصل إلى الطائف أغنى بقاع الحجاز وأخصبها ، ونحن الآن فى بقعة يقال لها (حنين) وفى أقصى الشمال من هذه المنطقة تقع الهضبة المشرفة على وادى الرمة من الجنوب وفيها بنو سليم فى الشمال ، وبنو عامر فى الجنوب وموقعا العمق فى الغرب وراية

(١) « تلدكه » نقلا عن تاريخ الاسلام السياسى .

إبان الأبيض فى أرض بنى سليم ، والوادى أرض منخفضة فى أدنى هضاب الجزيرة وحرّاتها تنصرف إليه جميع المياه التى تنزل عليها فى موسم الأمطار ، وإذا حفرنا الآبار فى بطنه على عمق يسير نعثر على ماء كثير ، هنا تسكن هوازن وثقيف ومضر وجشم وسعد وهلال وغيرهم وقد أحست هوازن بالخطر يقترب منها بعد أن دانت مكة لمحمد ودعوته ، وهى قد ورثت عن مكة عصبية الدين ، وحماية الأوثان كما ورثت من الطائف اجتواء الفقر والتماس الثراء ، فكان عليها أن تتحرك لتحمى هذا المجد العريض ، وهذا الوطن الأمين ، وهذه الثروة المدرارة ، ما من ذلك بد .

الزحف ... لا يفل الحديد الا الحديد

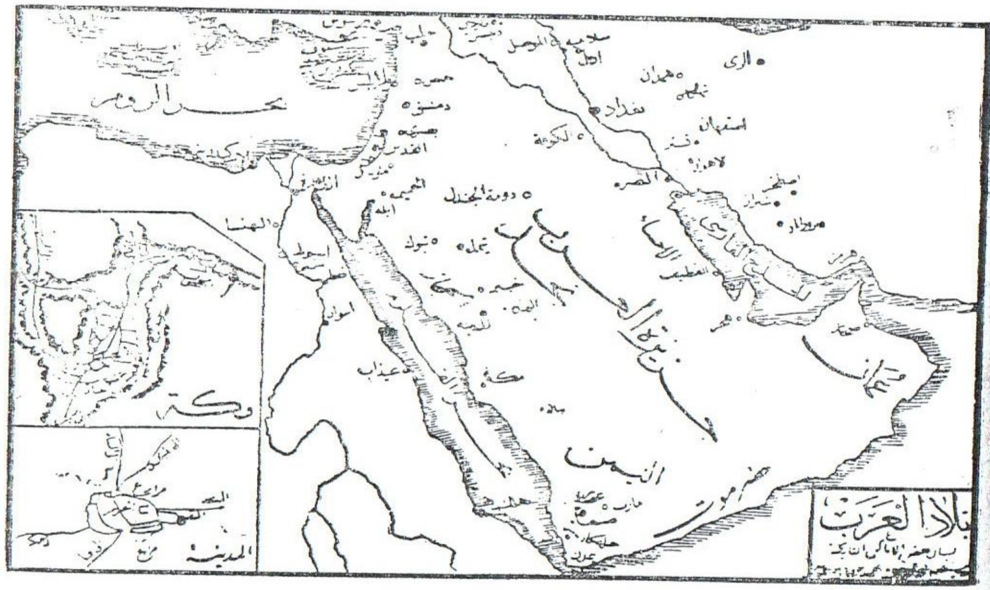
علم الرسول بزحف هوازن وثقيف وحلفائهم إلى مكة ليجلوه عنها فخرج إليهم بعد أن عاد خالد من جذيمة ولما يجف سيفه ، ومعه بنو سليم وجماعة من المهاجرين والأنصار ، وهنا نرى الرسول يجعل خالداً على مقدمة الجيش (١) .

بالأمس القريب كان قائد الميمنة فى فتح مكة لكى يدخل من عند أشد أحيائها عداوة والحكمة فى ذلك واضحة ، والإشارة إلى كفاية خالد بينة ، وعدو اليوم قد غادر موطنه ، وخرج إلى العراء وقد اصطحب معه الصبيان والنساء والدواجن والسائمة فسال الوادى وضج بثغاء الشاء ، ويعار (٢) الإبل ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، وصيحات الفتيان ، وأول ما يلتقى من

(١) ويروى أحمد فى المسند عن جابر بن عبد الله من حديث طويل أن خالداً كان على الميمنة ، وروى من وجه آخر سقناه هنا أنه كان على المقدمة ، وعند غيره على المقدمة .

(٢) اليعار : صوت الناقة .

الجيشين المقدمتان ، ولا يستطيع قائد الميمنة أن يملك ناصية الموقف إلا إذا كان رجاله أقوياء الروح ، أقوياء الأبدان ، ولا يغنيه فى هذا المضمار أنه مقتدر جبار ، وهذه هوازن فيها مشاهير العرب وأكبر قوادهم ومعهم جشم وفيها دُرَيد بن الصِّمة أشجع شجعان الجاهلية فوجب أن يتولى أمرهم قِرْم عنيد ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، ومن سوى ابن الوليد ؟



اللقاء ... الطابور الخامس

تخير مالك بن عوف رجالا ليبعثهم إلى المسلمين يندسون فيهم ويحيطونه بما عليه أمرهم من عدد وعدة ، وما تنطوى عليه صدورهم من ولاء لنبيهم ومودة ، وما لبث أولئك النفر أن عادوا إليه وقد تفرقت أوصالهم فرقاً فقال مالك — ويحكم ما شأنكم ؟

قالوا — رأينا رجالا بيضا على خيل بُلْق والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى من الخوف والفزع والحق أنه لو استطاع هؤلاء أن يندسوا فى وسط المسلمين لتعجبوا من أمر هذا العدد الكبير وقد انطوى على جماعة من مسلمة الفتح الذين لم تبرد بعد حرارة الولاء من قلوبهم للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، والذين كبر عليهم أن يروا أنفسهم يساقون إلى ساحة محمد ليقدموا له آيات الطاعة والانقياد .

حدثت هؤلاء أنفسهم أن يكونوا خبالا على المسلمين ، وأن ينقلبوا إذا ما رأوا العدو صلب العود من شكيمة ومراس ؛ فينادون بأصوات غريبة ، كلها الشماتة والشنآن والإحن والأضغان ، والفت فى عضد رآبيل الدعوة وحماة الإيمان .

وهذا مالك بن عوف يكمن فى شعب الوادى وتلاله وهضابه حتى إذا اقترب المسلمون من هذه الأنعام التى تضج وتثير بهيجانها واضطرابها غبار الثرى ، ظنها المسلمون جيشا لجبا ، ويقع فى أنفسهم بعض الشك فى استيثاقهم من قلة العدو بعد أن ترامت الأخبار إلى الرسول من جاسوسه عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى عن قلة العدو وأنه لا يتجاوز أربعة آلاف مقاتل حتى قالوا : لن نهزم اليوم من قلة . وفى هذه الفترة القصيرة التى وجفت لهـا القلوب واستعدت الأيدى للضرب والرمى ، وأعد كل هيئته ، إذا بالعدو يفاجئهم من مكامنه المبعثرة فى شعاب الوادى بوابل من سهامه ، وإذا بكتيبة من كتائبه تخترق صفوف المسلمين وتدق فيها أسفينا حتى تصل إلى مركز قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الركب ، ولم يمهل العدو المسلمين أن يفيقوا من هذه الغشية ليستعدوا ويتأهبوا .

وهنا صاح أبو سفيان بن حرب وقد أسلم ولما تزل الأزلام فى كنانته ، وكان إسلامه مدخولا بلبس الظلم ، وقذر الإثم « والله لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » ، وصرخ كلدة بن الجنيد وكان من مسلمة الفتح على نفاق : « ألا بطل السحر اليوم » ، وقال شيبة (١) بن عثمان الجُمَحى « لما كان عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قلت أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها ، وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته أبداً ، وكنت مرصداً لما خرجت له لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله عن بغلته فأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ، ورفعت سيفى حتى كدت أشعره إياه فرُفع لى شواظ من نار كاد يمحشنى إلخ ما قال وقد حسن إسلامه بعد ذلك ، والمقصود من هذا أن المسلمين لم تكن صفوفهم نظيفة من الدخلاء الأمر الذى أدى إلى وقوع الهزيمة المؤقتة ، حتى قال الرسول يومئذ « اللهم إنك إن تشاء لا تعبد فى الأرض بعد اليوم » (٢) .

قتال البطل . . .

وفى هذا الجو المضطرب الذى ترعد فيه أصوات المقاتلين وصيحات الغالبين والمغلوبين ، وأنات الموجعين والمكلومين ، نبحث عن خالد بعد أن خانت بنى سليم شجاعتهم وفر أصحابه من حوله ، وآن له أن يقول

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) إسناده ثلاثى على شرط الشيخين عند أحمد بن حنبل قال حدثنا يزيد حدثنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال كان دعاء رسول الله يوم حنين « اللهم إنك إن تشاء . . . إلخ » ولم يخرجه أحد من أصحاب كتب الحديث من هذا الوجه .

قولته الصادقة : ماأدرى من أىّ يومىّ أفر ، من يوم أراد الله عز وجل أن يُهدى لى فيه شهادة أم من يوم أراد الله عز وجل أن يُهدى لى فيه كرامة (١).

اقتحم خالد يضرب ذات اليمين وذات الشمال فلم يدع سواداً يراه إلا هد بناءه هداً حتى إن سيفه لم يرق لجيد الحسان ، ربات الجمال .

قال أحمد بن حنبل حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ثنا المغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد حدثنى المرقع بن صيفى أخى بنى حنظلة الكاتب عن جده رباح بن ربيع أنه رجع رسول الله فى غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رباح وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة مقتولة ، فوقفوا ينظرون إليها ويتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله على راحلته فانفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ماكانت هذه لتقاتل ، إلحق خالداً فقل له لا يقتلن ذريه (٢) ولا عسيفاً » .

الكرة الحاسمة . . .

وقف النبى وقد انشمر الناس منهزمين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز ذات اليمين ثم قال : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلىّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ونادى العباس يا معشر الأنصار يا أصحاب الشجرة

(١) راجع صفة الصفوة لجمال الدين أبى الفرج بن الجوزى ج ١ ص ٢٧٠ طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند .

(٢) وكذلك رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث المرقع بن صيفى بنحو رواية أحمد التى سبقتها ورواه ابن إسحاق منقطعاً قال : وحدثنى بعض أصحابنا أن رسول الله مر يومئذ بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون عليها فقال لبعض أصحابه : « أدرك خالداً فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً » والجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب » يعتبر أن هذا كان فى الفتح على خلاف ابن إسحاق وجمهور المحدثين .

إلى آخر تلك النداءات فاجتمع حول النبى نحو المائة من الأنصار وجماعة من المهاجرين وآل بيته ، وكروا كرة عظيمة يحملون قلوباً صقلها الإيمان ، ونفوساً صهرتها العقيدة فرحضت عنها أثر الجبن والخور ، فنازلوا أبطال ثقيف وهوازن ، فكان الفارس منهم لا يتوجه إلى جهة من جهات العدو إلا هزمها وما هى إلا جولة يسيرة حتى انقشع الغبار عن أموال هوازن وأسراهم وسباياهم بين يدى النبى تساق لتقسم على أولئك الذين انهزموا والذين نافقوا ويحرم من غدقها وفيضها أولئك المخاصون ، لا يريدون إلا أن يعودوا ومعهم الله ورسوله وتلك غنيمة الطاهرين الأبرار .

أين خالد ؟ . . . لقد أصيب

ذهبت عيوننا تحملق فى الوجوه الظافرة ، والقلة الظاهرة ، تبحث عن خالد رجل الكريهة الجحجاح ، فإذا بنا نراه وقد عاجلته ضربة لم تدعه يرأب من رجاله متباين الصدع ، وحمل إلى خبائه ليعالج فيه ، وقد عاده النبى ليطمئن على حياته (١) ، وحباه بعطفه الكريم حتى برىء ليستأنف كفاحه وجهاده ، ولنسير عزماته فى كل فج ، ويطير إلى الوغى فى كل ساح ثم تمر فترة طويلة تبلغ الثمانية أشهر عداً بعد أن أتم الله دينه وأفاض على العرب نعمته ، فوحد صفوفهم ، وألف بين قلوبهم حتى أصبحوا إخواناً .

(١) راجع الاستيعاب لابى عمر بن عبد البر ج ١ ص ١٥٨ .

إلى تبوك

ومرة أخرى أراد النبى أن يزيل هيبة الرومان من قلوب العرب ، ويجرئهم على كبرياء هذه الامبراطورية الشامخة ، التى دوخت الفرس ، وملكت المشرق والمغرب ، وقد كانت على حالة من عنفوانها ، تجمعت لها كل عناصر القوة من وحدة العقيدة ، وتجانس الحياة الاجتماعية ، وولاء الشعوب التى تحكمها لها ، وقد سارت فى ممتلكاتها على سياسة استعمارية ، إذ تركت الحكم الذاتى لأهل البلاد أنفسهم ، وجعلت حكامهم – حسب النظام السائد بينهم – من رجال الدين ، فزاد ذلك من هيبتها ، وأمن مكانتها ، فما تستطيع قوة بشرية أن تقهرها ، ويمكننى أن أرفض – واثقاً – الرأى القائل بأن دولة الرومان دب إليها الضعف والفساد يومئذ ، فليس لهذا الرأى برهان منطقى سوى أنه لو كانت هذه الدولة قوية ما استطاع العرب أن يتغلبوا عليها . وهذا هو كل دليل القائلين به ، أما ما يسردونه بعد ذلك من ضعف سيادتها على الشعوب المحكومة أو كثرة المذاهب الدينية فيها . أو استبداد حكامها ، كل أولئك لا يؤثر فى قوتها على فرض صحته ، وقد لا يخلو بعض ذلك من حقيقة ولكن ليس بالقدر الذى يدعيه أولئك الباحثون ، وسنأتى بمزيد إيضاح لذلك عند فتوحات خالد الرومانية إن شاء الله ومصدر هذا الرأى أن بعض المستشرقين كبرت عليهم آية الإسلام العظمى فى تحضيد شوكة الدولتين الرومانية بقسميها الشرقى والغربى ودولة الفرس ، فذهبوا يتلمسون العلل المادية ، والعوامل الوهمية فلم يجدوا إلا أن يزعموا ضعف الدولتين ، ونهاية الحضارتين ، ولو أتيح لأولئك المكابرين

أن يعيشوا فى عصر النبوة ، ويروا آثار الإسلام فى قلوب أولئك الأعراب من سكان البادية ، لهالهم إيمانهم الذى جعل الرجل منهم يرى سعادته المنشودة فى ضربة تأتيه من عدوه ولقد ناجى أحدهم ربه فقال : « اللهم سلط على عدواً من أعدائك فيبقر بطنى ، ويجدع أنفى ، ويسلبنى درعى وفرسى ، ثم أذهب إليك فتقول : فيم ؟ فأقول : فى سبيلك يا رب » ولسنا بصدد استعراض آيات إيمانهم الصادق وتصوير يقينهم المشمخر وإلا لما احتمل نطاق هذه الصحائف ، ولعلنا نلتقى بهم فى مؤلف مستقل يجمع أشتات تلك الآيات المباركات ، حتى ترضى الحافزة ، وتهنأ النفس إن شاء الله .

غزوة تبوك

تبوك قرية بين وادى القرى والشام بها عين ماء ونخل ، وكان لها حصن خرب (١) وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد يجتمع إليها الروم والعرب المتنصرة الذين يوالون دولة الرومان لخضوعهم لها من لخم وجذام وغسان وشمر ، وكان الوقت صيفاً ، وشواظ الحر يلفح الوجوه ، والقيظ يوهى السواعد ، ويثبط العزائم ، والوقت تسود فيه عند المسلمين شبه مجاعة لقرب إبان الحصاد وقد نفد ما فى الخزائن والبيوت من جريب الحب والتمر وحين تطيب الثمار يكره الناس شخوصهم وهم على تلك الحال ، ويحبون المقام فى ظلالهم وثمارهم ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يحس بأن الأجل قد دنا ، وأنه لم يبق له فى هذه الدنيا إلا وقت قصير ، وقد انتهى كل شىء فى

(١) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع
Eduobus codicibus Mss Nunc primum Arabice Edidit C. G. J. Juynboll,-Tomus primus complec-tens literas. Elif-Za

الحجاز ونجد فلم يبق إلا أن يهاجم بنى الأصفر (الرومان) ولا بد أن يتم ذلك قبل ارتقائه إلى الرفيق الأعلى ، لكى تتجه موجة الحركات بعد ذلك إلى الشمال ، ومن يدرى فلعل دقيقة واحدة تمر دون إنفاذ هذا الأمر تفوت الفرصة السانحة ، ويفلت زمام الأمر من أيدى المسلمين ، وتبقى حرية العمل مكفولة لدولة الرومان ، ولم تأت فتوحات خالد بن الوليد بعد ذلك بمحض الصدفة أو من عوامل الحاجة إلى الرزق والمال كما يدعى « كايتانى » وأضرابه من جماعة المستشرقين .

أكبر جيش فى تاريخ العرب

استطاع رسول الله أن يجمع أكبر جيش فى تاريخ العرب مذ كان العرب .

ثلاثون ألفاً يحملون راية النبي ويحرقون بيت النفاق الذى أراده جماعة من الأشرار ليكون بمثابة محطة إذاعة سرية فى فناء ضيق من بيت هذا اليهودى الذى يدعى « سويلم » ووكر للخديعة ، وإرصاد لتثبيط همم الناس ؛ وفى رجب من السنة التاسعة خرج هذا العدد الضخم زاحفاً إلى الشمال ، وقد عرف الناس جميعاً وجهته ، وكان على خالد حراسة مؤخرة الجيش بقيلقه الذى يتراوح بين الـ ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ولعله كان يبلغ أحياناً ٢٠٠٠ عند الضرورة فى أثناء المسير .

ترامى إلى هرقل (١) خبر تصميم المسلمين فى هذه المرة أن يهجموا هجمتهم الصادقة ، فانسحبت قواته إلى داخل بلاد الشام حتى تطول مواصلة الجيش

(١) مر بك أن الامبراطور جاء من بيزنطة إلى الشام ليضم الصليب — الذى استرده من الفرس بعد دحرهم — فى موضعه من بيت المقدس ، ونقول إنه مكث ثمة يجوب مدن الشام متنقلا بمواكبه الفخيمة حتى شهد فتوح المسلمين للبلاد .

المغير المسير ، ويكون لقاؤها إياه وراء الحصون بدلا من لقائه فى عراء مكشوف ، وساح هواء ، يجيد العرب فيه الكر والفر ، حتى انتهى المسلمون إلى تبوك ، وهناك عسكر النبي صلى الله عليه وسلم ورأى ألا حاجة له بالهجوم على الشام ، لا سيما فى هذا الوقت العصيب ، وقد تحقق غرضه من الخروج ، وتعودت جيوش الإسلام فيما بعد أن تطأ هذه الأرض ، واستطاع خالد بعدئذ أن يلوى أعناق الرومان ، وقد ذهب مع النبي فى هذه المرة قائداً كما كان مذ آمن بالدعوة الحنيفية ، وهذا ما عرفه فيه رسول الله منذ الدقيقة الأولى التى وقف فيها المسلمون شاهرى السلاح فى وجوه من يريدون الكيد بهم وبدينهم ، عرف فيه تجويد أساليب قيادة الكتائب فى المعامع ، وكان يرجو له الإسلام حتى كان . فوضعه فى المكان الذى يتجاوب روح العمل فيه مع استعداده الفطرى ، ومواهبه الطبيعية .

نعم لقد تحقق غرض النبي صلى الله عليه وسلم وقد زاده توكيداً هذه المعاهدة التى عقدها بينه وبين يوحنا بن رؤبة حاكم مقاطعة الحدود ، وقبوله الجزية عنه وعن مدينة أيلة .

نص معاهدة حسن الجوار

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة . سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يردونه من بحر أو بر » .



خالد لا يقنع . . . صراع الثيران

لم يرض خالد أن يعود المسلمون بغير أن يصيبوا من هذه الحركة أمراً يتحدث به الناس ، وترتعد من أجله فرائص من عساهم تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى تيار هذه الدعوة المحمدية ، فانتهز فرصة وجوده فى مؤخرة الجيش وتخلفه عنه فاستأذن النبي فى الهجوم على دومة (١) الجندل لإخضاع مليكها « أكيدر بن عبد الملك » ثم سار حتى اقترب منها ، وكان فى ضواحى هذه المدينة كثير من الأحراش والتلال والجبال التى تعيش فيها أنواع كثيرة من بقر الوحش وشتى أنواع الحيوانات المصيدة ، وكان أكيدر وأسرته مغرمين بصيد الأبقار ، ولأمر أراده الله ليمضى فيه قضاؤه ، تكاثرت الثيران حول قصره وأخذت تحك بقرونها أسوار الحصن ، وأبواب القصر ، حتى خرج ـ بعد هذه المراودة والإغراء ـ إلى الصيد وكان محتجباً فترة طويلة دون ذلك .

افتراس الصائد ؟

فى هذا الركب العائلى والليلة مقمرة ، والسماء صافية الإهاب ، لم يعكر صفو هذه الجماعة المتمتعة بشتى أطايب اللهو ، ولذائذ الشراب ، ومحاورة

---

(١) دومة الجندل بضم الدال وأنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين ، بينها وبين دمشق بضع مراحل وحصنها مارد وسميت دومة الجندل لأنها مبنية بالجندل وهي قرب جبلى طيء ودومة من القريات من وادى القرى . والقريات : دومة وسكاكة وذو القارة وعليها سور يتحصن به وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد وهو حصن أكيدر بن عبد الملك ، وكان نصرانياً ثم أجلاه عمر فيمن أجلى من أهل الكتاب إلى الحيرة فنزل موضعاً قرب عين تمر وبنى به منازل وسماه باسم حصنه بوادى القرى اهـ . ملخصاً من (مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) .

تلك الفرائس السمان ، ومصارعتها نافرة أو صابرة سوى طلائع من خيل خالد تقطع على الجماعة تظرفهم واستمتاعهم بهذه الرياضة البهيجة المنعشة وإدخال السرور على أنفسهم بهذا الضرب من التنزه والاستجمام وهنا يفيق الجماعة من غشيتهم ، ويعلمون أن فى خزائن مقدورات الله ما لا يخطر على قلب البشر وتأخذ الحمية « حسان بن عبد الملك » أخا أكيدر فينبرى للنزال ، وكأنه يظن أن مبارزة الأبطال كصيد بقرة ترتع فى أدنى الوادى طلباً للأبّ والكلأ ولكن هكذا سولت له نفسه أن يقارع ويجالد ، ويخرج لينازل القائد كى يخر بعد طرفة عين مجندلا على الأرض شلواً ممزقاً ، وعظماً متفرقاً من وكزة خالدية ، أتبعها بصمصام مهند .

وخشى خالد إن قتل اكيدر نفسه يوشك أن يلقى من النبى بعض اللوم والتقريع ، وقد ذاق مرارة التعريض بفعلته الأولى فى جذيمة ، ففاوضه وعرف خالد فى هذه المرة شيئاً من الصفاء والمسالمة وأجاره من القتل على :

١ — أن يحمله معه أسيراً إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ — أن يفتح له دومة الجندل .

٣ — أن يؤدى إليه بعض ما يحتاجه رجاله من ميرة وذخيرة وأدوات نقل وتموين مبينة فيما يلى :

عدد	نوع
٢٠٠٠	بعير
٨٠٠	رأس من ذوات الظلف (الغنم والبقر)
٤٠٠	درع
٤٠٠	رمح

ذكر ابن عائذ فى معرض الحديث عن هذا الخبر أن أكيدر قال عن البقر : والله ما رأيتها قط أتتنا إلا البارحة ولقد كنت أضمر لها اليومين والثلاثة ولكن قدر الله .

ويقول شاعر صحابى :

تبارك سائق البقرات إنى ... رأيت الله يهدى كل هاد
فمن يك حائداً عن ذى تبوك ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

ويروى الحافظ الكبير شيخ الرواة يونس بن بكير أن أبا بكر فى دومة الجندل كان على المهاجرين وخالد على الأعراب ، فإذا صح هذا الخبر دل على أن خالداً (وهو أمير القوم الذى تولى مفاوضة أكيدر ومصالحته) كان فى إمرته وتحت لوائه أبو بكر رضى الله عنه .

عودة إلى ثقيف

كان عروة بن مسعود الثقفى بعد أن أسلم قد أرسله النبى إلى « جرش » ليتعلم صناعة الدبابات والمجانيق والضبور ، وشتى أنواع الأسلحة التى كثر ابتكارها واختراعها فى ذلك الحين لقيام الحرب ، بين الرومان والفرس ، وفى أيام الحروب يزيد الاهتمام والولع والافتنان فى وسائل الغلبة وأدوات التدمير والموت ، وستبقى هذه سنة الله فى الناس ، ما بقى فيهم قلوب تنبض بالدماء الثرة والحيوية الدافقة . فلما أن عاد من وجهته استأذن النبى أن يعود إلى قومه عليهم يهتدون به فأذن له وكان من ذلك أن قدم وفد ثقيف برياسة كنانة بن عبد ياليل وفيهم فتى يافع لم يبلغ الحلم هو عثمان بن أبى العاص استطاع أن يحفظ من القرآن قدراً لا بأس به ، واستطاع هذا الوفد فى شىء كثير من اللباقة والسياسة والدهاء أن يظفروا من قومهم بالرضا والقبول لما عاهدوا عليه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يسلموا وأن يتولى رسول الله هدم ربتهم (اللات) .

اللات . . . . ربة ثقيف

إن ثمة تشابها بين صورة اليوم وصورة الأمس حيث كان خالد هو الذى هدم العزى معبودة مضر ، واليوم يرسله النبى إلى اللات ليهدمها ، وكان من رجاله الذين أمّره النبى عليهم أحد الصفوة من الصحابة « المغيرة بن شعبة » ويبدو أنه كان فى هذا الأخير كثير من الظرف والرقة ، ممزوجتان بقدر من شدة البأس وقوة الشكيمة ، فلما وفدوا إلى ثقيف لم يلبثوا أن عمدوا إلى

اللات ، فاستنكفت ثقيف كلها من الرجال والنساء والصبيان فخرجوا جميعاً حتى العواتق من ذوات الحجاب لا يصدق أحد منهم أنها مهدومة ، ولا يرون إلا أنها ممتنعة لا يقوى أحد على أن يقربها بسوء ، ومن فعل ذلك لقى حتفه ، وقصمته قصماً ! ! . .

فقام المغيرة بن شعبة واستأذن خالداً :

أيها الأمير ، والله لأضحكنكم من ثقيف .

وأخذ الكرزين (الفأس) فضرب به ضربة ثم سقط يركض فارتج أهل الطائف بضجة واحدة صائحين :

(أبعد الله المغيرة قتلته الربة) وفرحوا حين رأوه مستلقياً ، ثم زادهم ذلك تبجحاً وتحدياً فتوجهوا لخالد قائلين من شاء منكم فليقرب وليجتهد على هدمها فوالله لا استطاع . عند ذلك وثب المغيرة فقال : قبحكم الله يامعشر ثقيف إنها لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم ضرب الباب فكسره ثم علا أعلى سورها والرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض ، وفى خلال هذه الحركة الكبيرة التى تستغرق وقتاً فى الهدم ورمى الأنقاض كان حيالهم السادن الذى يحمل مفاتيحها يقول : ليغضبن الأساس فليخسفن بهم ، فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد : دعنى أحفر الأساس فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حليها ولباسها فبهتت ثقيف فقالت عجوز منهم « أسلمها الرضاع ، وتركوا المصاع » وعاد خالد يحمل للنبى هذه الغنائم كلها ، لتضيف إلى الإسلام قوة وعدة ، ومن يدرى ؟ لعل يوماً من الأيام سيأتى كتبت الأقدار على الاسلام أن يكون ، يوم مفعم بالشر والسوء ، يوم تشعب فيه الدماء التى تروى شجرة العقيدة ، حتى تبقى

للحق هيبته ، وتعلو لله كلمته ، ومن تلك الغنائم الحلال مدده وعدته .

وفي العام العاشر من الهجرة في آخر ربيع الآخر وغرة جمادى الأولى بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً إلى بني الحارث بن كعب بنجران قائلا له :

(ادعهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن تقاتلهم فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم)

وخرج خالد بمن معه من الرجال متجهاً صوب الجنوب إلى حدود الحجاز عند النطاق الداخل في تخوم اليمن (١) وقتئذ ، وتهيأ خالد لضرب جديد ، من ضروب العمل في ركب الدعوة المحمدية فبعث أرهاطاً من رجاله ركبانا يضربون في كل وجه وفي كل فج ، يخطبون في الأحياء والبطون ، ويشرحون للناس مزايا هذه الدعوة المحمدية وفائدتها للناس عامة وللعرب خاصة ، ويترددون على كل حي من هذه الأحياء ثلاثا يسمعون الناس من آيات الحق ما تلين له قلوب العقلاء منهم ، وما تنقدح به الحجة ، وتستحل بمكابرته الدماء الكافرة ، ومضت الليالي الثلاث وجمع خالد رجاله وقام في أهل الوادي يصيح صيحته المنذرة ، « أيها الناس أسلموا تسلموا » ورأى القوم في هذه اللهجة تصميما على أن لا يريم عنهم حتى يكونوا عند أعتاب

(١) هذا المكان يخضع اليوم سياسياً وعسكرياً للدولة العربية السعودية كما نصت على ذلك معاهدة الطائف المعقودة في سنة ١٩٣٥ ميلادية بواسطة مندوبي العالم الاسلامي إلى لدولتين العربيتين ، وهم المرحومان الأمير شكيب أرسلان ومحمد على علوبة والسيد أمين الحسيني مفتي فلسطين رده الله إليها محررة .

المجد، ماثلين عند وصيد الحق ، شاهدين بأن الله حق ، فأسلموا وسلموا بإذن الله ، وأقام خالد فيهم يتعهد غرسه ، ويرعى حقله ، يعلم الناس أمور الدين ويشرح لهم أغراض هذه الدعوة ومراد الله منها للعرب وجدواها عليهم . « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون » .

مكاتبة النبي (ص) ... ووفودهم

وكتب خالد إلى النبي صلى الله عليه وسلم بما حدث من إسلام القوم فرد عليه النبي بكتاب يأمره فيه أن يقبل ومعه وفد منهم فرحل إلى المدينة ومعه بعض خيار القوم وعلى رأسهم قيس بن الحصين ذي القصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المجمل ، وعبد الله بن قراد ، وشداد بن عبد الله . وهنا يعن لي أن أنحى باللائمة على بعض من يدعون البحث في التاريخ الإسلامي من الكتاب فقد كتب أحدهم يقول « وساق خالد رؤساء بني الحارث بن كعب إلى النبي فأنقذهم من مشورة خالد الدامية أن أسلموا ورجعوا إلى قومهم موفورين » والواقعة على مثل هذا النحو ليس لها سناد من صحيح التاريخ أو ضعيفه ، وإنما يدفع بعض أولئك إلى الغلط اللفظ اللعوب والخيال الخصيب ، وما يغني ذاك عن الحق شيئا .

في حضرة النبي ...

مثل الوفد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم :

— بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا :

— لم نكن نغلب أحداً . قال :

— بلى (أى كنتم تغلبون) قالوا :

— كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم . قال النبي :

— صدقتم .

وأمّر عليهم قيس بن الحصين ورجعوا إلى قومهم فى بقية من شوال أو من ذى القعدة .

نهاية الوحى .. فتن كالليل

ولبث النبي بعد ذلك أربعة أشهر وكانت الواقعة ، التى انصدع لها الوأب إذ هوى الليث ، وصعدت روح النبي إلى رفيقها الأعلى وفى الله عزاء وفى كتابه وسنة نبيه عوض من كل فائت .

أجل مات رسول الله ولم يتغلغل الإسلام فى قلوب أكثر سكان الجزيرة فادعى بعض الرؤساء النبوة وارتد أكثر الباقين . والمتفق عليه أن الذين تمكن الإسلام من قلوبهم ورسخ يقينهم هم المهاجرون والأنصار وقريش وثقيف والقبائل الضاربة بين مكة والمدينة .

اختلاف تأثير الردة

كتب المستشرق الإيطالى « ليون كايتانى » فى كتابه « تاريخ الإسلام » عن حوادث الردة فقسم العرب من حيث علاقتهم بحروب الردة إلى خمسة أقسام :

(١) القبائل التى أسلمت منذ مدة طويلة وكان خضوعها لسلطة المدينة تاماً . هى القبائل التى تسكن بين مكة والمدينة والقريبة منهما كجهينة ومزينة وأسلم وهذيل وأشجع وخزاعة .

(٢) القبائل التى تعاقدت مع النبي واشتركت فى حروبه فى آخر حياته وقد كان فيها أقلية تنتهز الفرص للتملص من سلطة المدينة إلا أن أكثريتها

مسلمة ومن هذه قبائل هوازن وعامر بن صعصعة وطيء وسليم وخثعم .

(٣) القبائل المقيمة على حدود الدولة الاسلامية خضعت هذه القبائل سياسياً لسلطة المدينة ، وأدت الزكاة إلى الرسول ، وفيها أكثرية تتحين الفرص للرجوع إلى حالتها القديمة ، ومن أخطر هذه القبائل بنو أسد وبنو غطفان وبنو تميم الساكنون فى أغنى مناطق نجد .

(٤) القبائل التى لم تخضع لسلطة المدينة بل اكتفت بإرسال الوفود إلى الرسول وتظاهرت بالخضوع له ، وفيها أقلية مسلمة ضئيلة تستند إلى قوة المسلمين فى المدينة للاحتفاظ بعزلتها . ومن أخطر هذه القبائل بنو حنيفة وعبد القيس وأزد عمان وأكثر قبائل حضرموت واليمن ، وأوفد الرسول إليها عمالا ليعلموا المسلمين أمور الدين وليمثلوا الإسلام فى تلك الأصقاع .

(٥) أما القبائل الباقية فهى التى لم تسلم وكانت نصرانية أو مشركة وهى القبائل التى تسكن فى الشمال . كبنى كلب وبنى تغلب وبنى غسان وقضاعة وتنوخ وبنى بكر وبعض القبائل فى حضرموت واليمن .

والظاهر أن هذا التقسيم ينقصه كثير من النضوج النظرى والذى أراه موافقتى للمرحوم الفريق طه الهاشمى باشا فى تأثير الردة برجوعها إلى العوامل الآتية :

«ا» قرب المنطقة التى تسكنها القبيلة من المدينة أو بعدها .

«ب» علاقة القبيلة بالمدينة .

«ج» قرب عهد القبيلة بالإسلام أو بعده .

والصحيح أن حركة الردة ظهرت قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ أن بعضها طلب من النبي إعفاءه من الصدقة ، وبعضها امتنع من إعطائها ، ومنها من تردد فى ذلك فأمسك عن الصدقة ومنها من ذهب إلى أجرأ من ذلك فارتد وطرد عمال الرسول أو قتل المسلمين ومثل بهم وكان من أثر ذلك كله أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرض عماله فى اليمن على مقاتلة الأسود العنسى الذى ادعى النبوة ، واستولى على أكثر مقاطعات اليمن ، وكان ظهور مسيلمة الكذاب فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك إلا أن هذا لا يمنع من أن حوادث الردة قد اشتدت وطأتها ، وجرف تيارها بعد وفاة النبي مباشرة بلاد العرب جميعاً ، وقال أبو بكر مقالته المشهورة :

« والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه »

قوات المرتدين

رأينا بعد استقصاء ما حدثنا به رواة الأخبار أن المرتدين ينقسمون إلى قسمين : محايدين ومحاربين . فالأولون ومنهم من لم يرتد ارتداداً بيناً ، بل ظل محتفظا بحياده غير ميال إلى أحد الفريقين كقبائل كنانة ، وأزد ، وبجيلة ، وخثعم ، وحكم ، وأشعر ، وعك . ومنهم من تأثر بحروب الردة ، كقبائل هوازن ، وعامر بن صعصعة ، وجديلة . وهى القبائل الضاربة إلى شمال شرقى مكة ، أما بنو سليم فقد ارتد كثير منهم ، وهذه القبائل لم تشهر السلاح جميعا فى وجه المسلمين ، ومنهم من لم تقرر إلى أى جانب تميل ، ومع ذلك فإن بعضهم قاتل فعلا وقتا ليس بالطويل كقبائل طىء ، وهذه القبائل التى ذكرناها — وإن وجد منها من ساعد أهل الردة الذين ثاروا فى وسط

الجزيرة - فإن سوادهم بقى على الحياد أو ظل فى منطقته كالمرتقب المنتظر ، أو اكتفى بأن طرد العمال الموفدين من عند الرسول فى حياة الرسول .

أما الآخرون - وهم الذين اشتركوا فعلا فى حروب الردة - فهم بحسب ترتيبهم المكانى : بنو فزارة ، وبنو غطفان الضاربون إلى شرقى المدينة ، وهم الذين جمعوا رجالهم وتأهبوا للهجوم على المدينة ، حينما أوفدو وفدهم يطلب من أبى بكر إعفاءهم من الزكاة ، ورفض الصديق إجابتهم لذلك . وهؤلاء أضعف المرتدين شأنا وأقلهم عددا ، ويحرزهم الفريق الهاشمى بألفى رجل ، ثم بنو أسد الضاربون بين الحجاز ونجد إلى جنوبى جبل شمر ، وقد ادعى فيهم طلحة بن خويلد الأسدى النبوة فى حياة الرسول ، وجمع رجاله فى السميراء ويقدّرون بخمسة آلاف مقاتل .

ولما توفى رسول الله وامتنعت القبائل من إيتاء الزكاة ، سعى إلى جمع القبائل حوله واقترح عيينة بن حصن الفزارى ترك الخلاف وعقد مهادنة بين بنى أسد وبنى فزارة وبنى غطفان . وقد جلب عيينة معه سبعمائة فارس . وهنا نرى جبهة تقوم فى وجه الإسلام مؤلفة من بنى أسد ومعهم بنو فزارة وأفواج من الطائيين فضلا عن خمسمائة مقاتل على رأسهم ثمامة بن أوس زعيم جديلة بن طىء ثم سكان منطقة (قصيم) فى نجد وهم بنو تميم وهؤلاء لم يتفقوا جميعاً على مقاتلة المسلمين لكثرة اختلاف البطون والعشائر بينهم وهؤلاء لم يلبثوا أن كانوا خبالا على المرتدين أنفسهم إذ نكصوا يحارب بعضهم بعضاً عندما اقترب خالد بجيشه من ديارهم كما سترى إنشاء الله وهؤلاء دعاهم إلى الردة عوامل منها امتناع أكثر العشائر عن أداء الزكاة وظهور سجاح فى الشمال مدعية النبوة وكانت تمت إلى بنى تميم بنسب فلما دخلت ديارهم التف

حولها بعضهم وعلى رأسهم الزعيم مالك بن نويرة وقد التجأت هذه المرأة قبل أن تلتقى بجيوش خالد إلى الفرار والذهاب إلى مسيلمة المتنبى الكاذب فى اليمامة فكان من أمتع اللفتات التاريخية أن يجتمع نبى ونبية كاذبان فى مكان واحد والسبب فى ذلك أنها كانت قد أمرت مالك بن نويرة أن يعلن الحرب على أبى بكر ، وكان قليل من بطون تميم لم يزل على الإسلام فالتجأ إليه المسلمون الهاربون من شتى العشائر ، وقابلوا هذه المرأة الشاذة ومن معها ومنعوها من التقدم نحو المدينة حتى انتصروا عليها على ما يزعم الرواة .

أما أخطر قبائل أهل الردة فبنو حنيفة باليمامة ، إذهم أشدها مراساً ، وأعنفها قتالا ، وأكثرها رجالا حتى ذاق المسلمون الأمرين فى حربها ، ولولا ضمانة الله حفظ دينه وأن قيض له رجلا محاربا جباراً ، وقائداً فذا مثل خالد بن الوليد لتغير وجه التاريخ ، ولظلت الإنسانية على جاهليتها الأولى ولما تفتحت مغاليق أسرار الطبيعة لإنسان القرن العشرين ، ويروى أن بنى حنيفة بلغ عددهم أربعين ألفاً ، وسبب ارتداد هؤلاء أن دعوة الإسلام لم تنتشر فيهم فبقى أكثرهم على الشرك حتى ادعى مسيلمة رئيسها النبوة فآمنوا به هذا وعلى ذلك يكون مجموع قوات المرتدين كما فصلنا زهاء ثمانية وأربعين ألفاً ولكن المرحوم الهاشمى باشا لا يميل إلى الاعتقاد بصحة رواية سيف بن عمر فى تقدير قوة بنى حنيفة ويحزرهم بخمسة عشر ألفاً بلا دليل أو برهان .

مقدار قوة المسلمين :

لاشك أن أبا بكر وجد صعوبة شديدة فى تكوين جيش لمحاربه هذه القوات المتجمعة الكثيفة للقضاء عليها ، سيما إذا علمنا أن رسول الله (ص) كان قد أمر أسامة بن زيد قبل وفاته على جيش يبلغ الخمسة آلاف مقاتل للزحف إلى الشمال ونفذ أبو بكر خطة النبي رغم إشارة بعض الصحابة بتأجيلها والإبقاء على قوة أسامة ليعتز بها الإسلام ولاسيما أن فيها خيار المهاجرين والأنصار فلا مندوحة إذن من أن يدعو أبو بكر القبائل الضاربة بين المسجدين (مكة والمدينة) ممن أتينا على ذكرهم وبعض ثقيف وقريش ، ويمكن تقدير القوة التى جمعها بادىء ذى بدء بعشرة آلاف مقاتل زادت فيما بعد بعودة جيش أسامة وإسلام كثير من القبائل المرتدة ، ووجود مسلمين كثيرين وراء خطوط الأعداء من نفس قبائل أهل الردة يقومون بعرقلة حركاتهم والإغارة على أحيائهم باطراد ، ولاشك أيضاً أنه قد وقعت إشتباكات غير حاسمة بين جيوش المرتدين وجيش الصديق قبل أن يتولى خالد قيادة الجيش ومن ذلك ماوقع فى البقعاء بين طليعة المسلمين وعبس وذبيان حين رأى هؤلاء فريقاً من جيش المسلمين يلحق بالمقدمة لنجدتها حتى وصلت فلول المنهزمين من المرتدين إلى ثنايا العوسجة وما وقع أيضاً بين المسلمين وأهل الردة فى بزاخة قبل أن يلتقى خالد بجيش طليحة بن خويلد الأسدى .

كيف وقع التمرد

يحدثنا الرواة أن أول من تمرد على الإسلام وسلطانه خارجة بن الحصين أحد زعماء بنى فزارة ، فقد اعترض عامل الرسول فى جباية الزكاة ، وهو فى طريقه إلى المدينة وأخذ كل ما فى يده من أموال وأعاده إلى من أخذ منهم من بنى فزارة وقفل العامل إلى أبى بكر خاوى الوفاض يسبح بحمد ربه أن عاد سالما من الموت حتى ينهى إلى الصديق أول شروع فى العصيان ، ثم أعقب هذه الحوادث ثورة بنى أسد ومظاهرات بنى غطفان وبطون من طى فاجتمع الأولون فى السميراء وعلى رأسهم طليحة بن خويلد الأسدى ، واجتمعت فزارة فى جنوبى طيبة واجتمعت عبس وذبيان فى الربذة والتف حولهم فلول من كنانة فلما أن كثروا لم يجدوا من واسع الرزق ما يحملهم على المقام فالمياه ضحلة ، والغيث شحيح فانقسموا إلى قسمين أحدهما بالإبرق بالقرب من الربذة والآخر فى ذى القصة وقد أمد طليحة فرقة ذى القصة بقوة من بنى أسد ، فإذا عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى فى شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة وهذا التاريخ يوافق شهر يوليو سنة ٦٣٢ ميلادية دلنا ذلك على أن الوقت صيف والمياه تشح فى هذا الفصل من العام وتشح تبعاً لذلك المراعى . كان للقوم أن يتفرقوا مضطرين وإلا تعرضوا للمجاعة لا قبل لهم بها . وكان أبو بكر قد رد وفد الفزاريين والتميميين وعلى رأسهم الأقرع بن حابس وآخرون حين عرضوا عليه أن يقيموا الصلاة ويمنعوا الزكاة وكان بعض الصحابة قد أشار على الصديق أن يتريث فلا يردهم غاضبين مستيئسين حتى لا يتجمهروا ويحدثوا التمرد فيشيع فى القبائل العصيان والشغب وبذلك يختل حبل الأمن قبل أن يعود جيش أسامة ولكن الصديق أبى.

يسألنا بعض أصحابنا عن رأينا فى وقوع الردة فى عهد رسول الله (ص) وهل كان ذلك فى ثورة واضحة ، ونفرة صارخة ، أم أن الأمر لم يتجاوز حدود التبرم بالدين الجديد ، الدين الذى لم يتغلغل بعد فى القلوب ، ولم تشرب بمبادئه الأفهام وقد استبعد أولئك القول بوقوع الردة على عهد الرسول (ص) سيما وقد تلقنوا فى معاهد العلم من كتب التاريخ أن الردة قد وقعت بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وجوابنا على ذلك يستند إلى صحيح التاريخ من عدول الناقلين فأما مسيلمة الكذاب فقد تظاهر ضد الإسلام مع بنى حنيفة على عين النبى وفى حياته .

وفى الصحيحين من حديث نافع بن جبير عن ابن عباس قال : قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله (ص) المدينة فجعل يقول : « إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته وقدمها فى بشر كثير من قومه فأقبل النبى (ص) ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى (ص) قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنك الله وإنى أراك الذى رأيت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى ثم انصرف قال ابن عباس فسألت عن قول النبى (ص) إنك الذى رأيت فيه ما رأيت فأخبرنى أبو هريرة أن النبى (ص) قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى » .

لا تحسبن عبارة « يخرجان من بعدى » دليلا على حصول الفتنة بعـــده صلى الله عليه وسلم لأننا روينا من حديث أبى هريرة فى الصحيحين أيضاً ما يفسر المعنى المراد :

« بينا أنا نائم إذ أتيت بخزائن الأرض فوقع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى إلى أن أنفخهما فنفختهما فذهبا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة »

وقد بلغت بهذا الكذاب القحة أن يبعث بكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مسيلمة رسول الله (كذا) إلى محمد رسول الله أما بعد فإنى أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر وليس قريش قوما يعدلون » فلما قدم رسوله الكتاب وكان النبى يحفل بمن لهم خطر فى قومهم فلم يشأ أن يهمله وشأنه بل كتب إليه كتاباً يرد عليه يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقد رأينا من سياق الأخبار الواردة فى شأنه ما ينبىء باصطفاق بنى حنيفة على التصديق به والالتفاف حوله قال ابن إسحاق : فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : « لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا » ووضع عنهم الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا وهو مع ذلك يشهد لرسول الله (ص) بأنه نبى فأصفقت بنو حنيفة معه على ذلك .

وروينا فى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى وائل عن عبد الله قال « جاء ابن النواحة وابن أثال رسولين لمسيلمة الكذاب إلى رسول الله فقال رسول الله (ص) آمنت بالله ورسوله ولو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما قال عبد الله فمضت السنة أن الرسل لا تقتل » وحديث أبى رجاء العطاردى عند الإمام

أبى عبدالله البخارى يدل على أن القوم إنما اتبعوا مسيلمة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ونصه «لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار ، وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ألقينا ذلك وأخذناه فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به وكنا إذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة فلا ندع سهمافيه حديدة ولا حديدةفى رمح إلانزعناهاوألقيناها» وهذا صريح فى أن القوم لم يلبثوا حين بلغهم أمر النبى (ص) أن اتبعوا مسيلمة فلحقوا بالنار .

لفتة روحية . .

ولفتة أخرى من أعماق الروح النبوى تلك نفخة الرسول فى السوارين فطارا تشير إلى فضل عظيم توجت به إرادة الله هامتى خالد بن الوليد وأبى بكر الصديق ، وأولها بسيفه وعقله وخططه ، وثانيهما بسلطانه وإرادته وإشرافه قد نفخا هذين الكذابين فطارا ، هباء تذروه الرياح . وتلك رؤيا النبى قد أولها ، وعزا طيران السوارين إلى نفخته بنفسه وهودليل على منقبة لمن كان سبباً فى زوال سلطان الكذابين ، والقضاء على دعوتهما الضالة الفاجرة ، وأنه من روحه لاصق لا ينفك فطوبى لأبى بكر ثم طوبى لأبى سليمان .

عودة . . .

أما باقى المرتدين فالأخبار كلها تدل على فظاظة أولئك الأعراب وغلظ أكبادهم وليس من السهل على الإسلام أن يخترق قلوب أولئك الذين شبههم

القرآن بالأنعام بل أضل منها لمجرد الحجة والإقناع ، فهم قوم لايخضعون إلا للحديد ذى البأس الشديد ، وماذا تنتظر من قوم تقرأ سيرة أشرافهم وذوى الوجاهة فيهم فتخجل من أن يكون لأولئك الأجلاف شرف فى عالم العجماوات فضلا عن بعض من يؤاخونك فى اسم البشرية ، ولا يبادلونك مساماها ، فبنو تميم وزعيمهم الأقرع بن حابس . أليس هو الذى دخل المسجد ووقف بين يدى النبى (ص) وانتحى يبول بين الصفوف وهمّ به الناس ولكن النبى (ص) قال :

« لا تُزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) ثم قال : أريقوا عله ذنوبا من ماء » .

ماذا تنتظر من أولئك إلا التمرد والجاهلية وعداوة الحق والنور والعلم ؟

الطبوغرافية الوصفية للمواقع :

تضم الساحة التى جرت فيها المعارك التى نحن بصددها بلاداً وأماكن شتى مختلفة فى أجزائها ، إلا أنها صحراوية فى مجموعها ، فيها جبال قليلة تتكون من سلسلتين أولاهما سلسلة جبال أجأ التى يحاذيها جبل سلمى ويضرب فى شماليه الشرقى بنو أسد من الناحية الجنوبية من سلسلة أجأ وتضرب قبائل بنى طيء الشمال من هذه السلسلة على سفوحها بأدنى صحراء « النفود » وتحد هذا القوس من الجبال حرّة خيبر وهى أرض بركانية خامدة ومن العوارض التى تتصف بها هذه الساحة هى الحرّات وحرّة خيبر من أخطرها .

وتسكن قبائل غطفان وأشجع ومرة وفزازة وسعد إلى الغرب من بلاد

نجد وإلى الشرق من المدينة ويحدها من الشمال جبل سلمى ومن الجنوب بعض الوديان الضيقة التى وراءها الربع الخالى .

أما السلسلة الأخرى من الجبال فهى سلسلة طريق نجد ويبلغ ارتفاعها من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ متر وهى جرداء تمتد من الشمال إلى الجنوب فى جبلين متوازيين وتشرف هذه السلسلة على رمال الدهناء الواقعة بين الخليج الفارسى وبلاد نجد ، ويسكن فى سفوح هذه السلسلة بنو ربيعة وبنو بكر وبنو مضر وإلى الشمال منهم بلاد البحرين وفيها بنو عبد القيس .

ويفصل هذين الجبلين نهر وادى حنيفة الذى تصب فيه عدة شعب من شماليه فيجرى جنوباً إلى الرياض وفى جنوبى الرياض يغير مجراه إلى الجنوب الشرقى فيصب فى رمال الأحقاف وهنا ترانا قد قمنا برحلة استكشافية على الخريطة ضاربين فى مناكب الجزيرة إلى الجنوب الشرقى فلنقفل من هذه الرحلة راجعين إلى حيث قمنا من جبال أجأ وما يسمى الآن بوادى الفسن الذى يفصل جبل أجأ عن جبل سلمى وهنا نشرف على دُومة الجندل فى منطقة الجوف حيث الطريق الذى يسير شرقا إلى نهر اليرموك وفى الجوف ينتهى نهر وادى سرحان الذى يخترق حدود الشام إلى حيث مملكة غسان ، أو ما يسمى الآن بجمهورية لبنان وإلى الغرب من الجوف تضرب قبائل بنو كلب ثم بنو عبس ومرة وذبيان ثم بنو قضاعة وإلى الشمال من بنى قضاعة تبوك وبنو جذام وفيما بين بنى جذام وودى سرحان إلى الشمال تسكن قبائل بلىّ (١) وهنا ننتهى إلى أقصى المواقع فى الشمال فلنلتفت إلى الجنوب ولننحط

(١) هذه الاماكن تحتفظ بأسمائها فى الغالب وبنو بلى هم الذين ساعدوا ابن رفادة منذ سنوات على الثورة ضد الملك عبد العزيز آل سعود ولكن الله أيده فأخمد ثورتها وقتل ابن رفادة وأنصاره .

بنى فزارة وسعد فإذا بنا نقع على وادى بنى سليم وهم أقرب هذه القبائل كلها إلى المدينة من الشرق وليس هنا من جنوبى هؤلاء سوى بعض قبائل من بنى عامر الذين يقيم أكثرهم بين بنى غطفان وبنى مضر من بلاد نجد وفيما وراء هؤلاء جميعا من الجنوب لانجد إلا الربع الخالى فلنهبط إلى حرة خيبر ولنسر جنوباً إلى المدينة عن طريق ذى قرد ولنقف هنا حيث هى الهدف الذى يرمى إلى إصابته أولئك الثائرون من جحافل من ذكرنا من سكان البادية ثم لنتجه بغرب فنرى مكة ومن ورائها وادى تهامة حيث الطائف وجبل القرى وإلى الجنوب من هذه المواضع خثعم وهمدان وخولان والأزد حتى نصل إلى شمالى نجران من حدود اليمن ولا يزال يسير معنا وادى تهامة على سواحل البحر الأحمر حتى يصل بنا إلى صنعاء وهنا نرى الأسود العنسى يدعى النبوة كذبا ويستولى على أكثر مقاطعات اليمن من بنى الحارث الذين أوفد النبى خالداً اليهم قبل أن يموت فأسلموا وبنى مراد وبجيلة وهنا نجمل هذه الساحة بحدودها الآتية :

من الشرق الخليج الفارسى ومن الغرب البحر الأحمر ومن الشمال مملكة غسان ومن الجنوب بلاد اليمن .

وتكثر فى هذه الساحة ولا سيما فى الشرق منها المضايق والمنعطفات التى تنساب فيها الطرق ولا يعرف غايتها إلا الخريت (١) .

(١) الخريت بكسر الخاء المعجمة والراء المشددة المكسورة بعدها مثناة فوقية هو العارف الخبير بطرق البادية وسبلها .

متى وأين كانت المعارك ؟

وعلى ضوء هذه الصورة الوصفية للساحة يمكننا أن نعرف مبلغ خطورة الأمر فإذا عرفنا أن أخبار الردة قد ترامت إلى المدينة على عهد أبي بكر ولا بد من قطع آلاف الأميال للبريد الذى لا يجد من أدوات الحمل والنقل ما يجده الرجل فى عصرنا هذا من وسائل خاطفة ، وأدوات طارقة . أجل إذا عرفنا بعد الشقة استنتجنا معها أدلة تزكى ما قلنا آنفا من وقوع الثورة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء فى أخبار الردة أسماء أماكن كثيرة منها ماهو محتفظ باسمه إلى اليوم ومنها ماحرف ومنها ما غير ، فالربذة وتبعد عن المدينة كما يقول ياقوت بأربعة وعشرين فرسخاً وإذا عرفنا أن الفرسخ العربى يقدر بأربعة كيلو مترات ونصف عرفنا معه أن الربذة هى الموضع الذى يسمى الآن حناكية الذى يبعد عن المدينة بحوالى ثمانين ميلا تقريباً ، وكذلك طيبة ولعله المحرف اليوم بجبل طابة ، أما البقعاء أو ذو القصة فلا يوجد لها اسم من هذين اليوم على الخريطة ويمكننا تقدير موضعها الآن حسب الأوصاف التاريخية والاستئناس بآراء الخبراء العرب مما رجعنا اليهم فيما كتبوا وما قالوا أنها المكان المعروف الآن بالسابية وهى على الطريق التى تمتد من غرب المدينة من حناكية أو « الربذة » .

قبل أن يتولى خالد

وقبل أن يتولى خالد زمام هذه المعارك المروعة كان أبو بكر الصديق

قد اتخذ مافى وسعه من أسباب الحيطة فأقام فى الأبراج المحيطة بمنطقة يثرب ربايا أو ما يسمونهم الآن « بالناضورجية » يستطلعون حركات العدو إذا ما اقترب من المدينة ليقتحمها وأقام مع كل ربيئة قوة صغيرة تصلح للمناوشة ريثما تنجدهم القوة الرئيسية فى المدينة ، وأراد المرتدون أن يقوموا بحركة هجوم مفاجئة يباغتون بها المدينة ، ولكن أنى لهم هذه المفاجأة وللمسلمين عيون وأرصاد وقد نظموا أنفسهم وأخذوا زمام الأمر فى أيديهم وعقدوا ـ على الرغم من قلتهم ـ خناصر قلوبهم على أن يردوا كيد الكائدين بإذن الله فوقع ما كان فى الحسبان والتحم جيش المرتدين الأول بربايا المسلمين، ونقول جيش المرتدين الأول لأنهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسما كبيرا منهم فى ذى حسى بين ذى القصة والمدينة ، كان أبو بكر ومعه المسلمون مجتمعين فى المسجد تتوارد إليهم الأخبار والقلوب واجفة ، والحالة حرجة ، والأعصاب متوترة ، إلا أنهم الآن فى بيت الله ، وفى مسجد رسوله وهم قد علمهم النبي أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا والله معهم ولن يَلِتهم أعمالهم ، وخطب أبو بكر يرد على عمر بن الخطاب حين قال « الزم بيتك ومسجدك فإنه لاطاقة لك بقتال العرب » فقال :

« أين كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون . قوله الحق ووعده الصدق . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » وخرج أبو بكر بمن معه فى المسجد فأنجد الربايا وهزم المهاجمين بجيش لا يزيد على المائتين

إلا أن أبا بكر لم يكتف بهذا بل أتى بالجمال وامتطاها وطارد المرتدين ولكن الفارين منهم أتوا بقرب ونفخوها ودهدهوها من أعلى الروابى فنفرت وارتدت على أعقابها ولما رأى الفارون هذه الحركة ظنوها فراراً وهزيمة فأنهوا بذلك إلى من خلفهم ممن عسكروا فى ذى القصة فلحقوا بهم يظنون بالمسلمين الوهن ولكن أبا بكر بات ليلته تلك وهجم على المرتدين قبل أن يصلوا إلى المدينة ولحق بهم حتى ذى القصة وهناك طاردهم وأعمل فيهم السيف حتى فروا ولما رأى أولئك ما حل بهم أرادوا أن ينتقموا ممن فيهم من الباقين على الإسلام فقتلوهم ليشفوا غليلهم أولا وليستأصلوا المسلمين الذين يُنهون بحركاتهم إلى المدينة ولكن الصديق أقسم ليقتلن من كل قبيلة بعدد من قتل من المسلمين ، وكانت وقعة البقعاء هذه أول نصر أحرزه المسلمون ، ويظهر أن تفرق المرتدين إلى فرق ثلاث فى بعض الروايات إحداهن التى هاجمت المدينة والثانية عسكرت فى ذى حسىً والأخرى فى البقعاء أو ذى القصة أو فرقتين فى روايات أخرى كان لسبب قلة الماء وعدم كفايته لهم مجتمعين فتفرقوا فى مظانه ومواطنه حتى يكفيهم ولهذا انتصر المسلمون عليهم فرقة بعد أخرى فى مكان واحد عندما أخذ ينجد بعضهم بعضا وسرى خبر انتصار المسلمين هذا فى القبائل فأخذت الصدقات ترد إلى المدينة من الأطراف البعيدة ممن كان أهلها مترددين كبعض قبائل طىء ومن جاورهم إلا فرقتين من الطائيين قد آثرتا الانضمام إلى المرتدين فنالها ما نالهم من انكسار .

أين خالد ؟..

كان خالد يقاتل مع المهاجرين فى ذى القصة والأبرق والسميراء وهى

المواقع التى قادها الصديق بنفسه رغم إشارة بعض الصحابة عليه بألا يجازف بقوة المسلمين فقد هزم المرتدين فى ذى القصة كما أوضحنا ثم باغتهم فى الأبرق فهزمهم هزيمة نكراء وانسحبت فلولهم إلى السميراء حيث انضمت إلى القوة الرئيسية من بنى أسد وعلى رأسهم طليحة بن خويلد المتنبى الكاذب .

وكان انسحاب المرتدين من عبس وذبيان وكلاب فى الأبرق إلى السميراء قد أوقع الرعب والفزع فى قلب طليحة فظن الخطر يحدق به لاسيما وأبو بكر يمعن فى مطاردة المرتدين بلا هوادة ولا رفق كأنما يضع بهذه القيادة وفى خلال فترة توليته إياها دستور العمل لمن سيجىء بعده . ولم يجد طليحة بدأ من الانسحاب بجميع القوات التى معه نحو بزاخة،ولكن الصديق اكتفى بأن هزم الله المرتدين هذه الهزيمة الشنعاء إذ تركوا مراعيهم وأراضيهم فى الأبرق فمنح تلك المراعى خيل المسلمين ترتع فيها وحرم منها بطون ذبيان الذين كانت لهم بالأمس القريب فبطروا معيشتهم ، وامتشقوا الحسام فى وجه الإسلام .

تولى خالد القيادة ....

نعم اشترك خالد فى هذه المعارك كلها كجندى من جنود الصديق يكر ويفر كما تكر الجموع وتفر ، يزحف مع الزاحفين ، ويضرب صفحة كل معرد تنبيل ، ولكنه لا يدرى أن الخليفة سوف يعلم أنه قبل كل شىء سائس أمور المسلمين ، ويجب أن يتناول القيادة بمقدار فلا تطغى على باقى الشئون المدنية ، ويكون على الخليفة حينئذ أن يقلد القيادة لمن قامت الشواهد

والبينات على قدرته واستثماله لها وليس أقمن من خالد بن الوليد على أن يناط بها فليكن كذلك إن شاء الله . وجمع الصديق ما أمكنه جمعه من قوات ووسد أمر القيادة إلى خالد . نعم إن هناك روايات تقول إن الصديق قد قسم جيشه إلى أحد عشر لواء وعين لكل منه قائداً وأرسل كل واحد منه إلى جهة حتى ليقول سيف بن عمر: إنه أرسل لواء إلى كل من حضرموت ومهرة وعمان والبحرين ، ولكن يبدو أن ليس فى هذا القول كثير من الصحة لعدم توفر العدد الكافى لدى الصديق من قوات المؤمنين الذى يمكن توزيعهم على هذا النمط ثم إنه لو فعل ذلك لكان قد أعطى المرتدين فرصة للتغلب على قواته كما أعطوه من قبل مثلها حين تفرقوا بين ذى القصة وذى حُسىّ والمدينة ، والذى يمكن أن يكون قد وقع بالفعل أن الصديق قد جمع القوات كلها وأمّر عليها خالد بن الوليد ، على أنه قد عقد لواء أو لوائين آخرين إلا أن خالداً كان له حق الإشراف عليها وتتبع حركاتها ، ولعلها لواء عكرمة بن أبى جهل وفرقة شرحبيل بن حسنة اللذان فشلا فى هجومهما على قوات مسيلمة فانسحبا إلى الوراء والتحقا بلواء خالد بن الوليد وهنا احتشدت قوة المسلمين فى البقعاء ويقدرها بعض الرواة بأربعة آلاف مقاتل ، ثم التحق بها جيش أسامة ابن زيد الذى عاد من حدود الشام والتحق أكثره بجيش خالد .

وصف منطقة الحركات :

أتينا على وصف طبوغرافى شامل للساحة الواسعة من واقع الخريطة التى فى أيدينا والمراجع التى استوضحناها إلا أننا نرى نقل هذا الفصل مما كتبه الفريق طه الهاشمى كى يتمم كلاهما الآخر وهذا الفصل فضلا عن

أنه يصور المواقع تصويراً دقيقاً فإنه فنى من أحد أعلام الشرق فى السياسة والحرب وهو رجل قاد المعارك وخاض المعامع ولقوله خطر أى خطر قال رحمه الله :

« يسكن بنو أسد فى الساحة الواسعة التى فى شمال الوادى من جنوبى فيد وطابة غربى السميراء وظهران السليلة ، وفى غربى النقرتين نقرة السلاسل ونقرة الخطوط وجبل ساره . وفى أرض بنى أسد يقع موقع الغمر وهو رابية مرتفعة تشرف على وادى الغمر الذى ينبع من سفح جبل الموشم ويصب فى الكهفة . . وبالقرب منه تقع بزاخة بنى أسد وهى الموقع الذى نشبت فيه المعركة بين جيش خالد وجيش طليحة .

والذى جعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن موقع بزاخة فى هذا المحل هو ما ذكره ياقوت الحموى فى معجمه نقلا عن ابن الكلبى أما الأصمعى فيروى أن بزاخة ماء لطيء وفى جبل طيء موقع آخر يسمى بزاخة . وعلى ما يظهر لنا من مجرى الحركات أن القتال بين المسلمين وبين المرتدين لم يقع فى أرض طيء بل وقع فى أرض بنى أسد بالقرب من الغمر ولاسيما أن خالداً بعد انتصاره على طليحة وجه سراياه فى جهات مختلفة مطارداً فلول المنهزمين . وهذه السرايا قاتلت المنهزمين فى جبل رمان فى الأبانين (١) ، ولا يعقل أن المعركة نشبت فى بزاخة طيء والمطاردون يطاردون المنهزمين إلى رمان والأبانين ، بل من المعقول أن تنشب المعركة فى جوار الغمر فيشرد المنهزمون إلى أنحاء مختلفة اهـ » . وإلى هنا نعود إلى الحركات العسكرية لكلا الفريقين .

(١) يعنى رحمه الله نهرى أبان الأبيض فى الجنوب والأسود فى الشمال والأخير هذا فى أرض بنى أسد إلى أن يمر بشمال الرس فيصل العنيزة وبريدة فى الشمال وهما قريتان من بلاد القصيم فى نجد فى حى تميم .

التحاق جديلة وغوث بطليحة

كان بنو أسد وعلى رأسهم طليحة بن خويلد وفرسان من غطفان وعلى رأسهم عيينة بن حصن الفزارى برابطون فى بُزاخة (وهى ماء لبنى أسد والذى يلوح لنا أن هـذا المـكان فى جنوبى فيد بوادى الغمير على طريق يصل فيداً بالبريدة والأرض فيه سهلة ـهى صالحة للقتال) فانضمت اليهم فرقتان من طىء هما جديلة وغوث وكان الصديق قد أوفد رجلا من صفوة الصحابة وهو إلى ذلك زعيم فى قومه هو عدى بن حاتم الطائى قبل أن يزحف خالد لـكى يثبط عزائم قومه عن اللحاق بطليحة فاستطاع هذا أن يجمع حوله قسما عظيما منهم ظلوا فى ديارهم لا يمالئون أحداً من الفريقين إلى حين.

خطة خالد

تقول بعض الروايات إن خالداً سار إلى بزاخة لقتال طليحة حتى انتهى إلى الغمر (وهى رابية تشرف على ماء بنى أسد ومنها ينصب وادى الغمير المعروف فى بلاد العرب) فأدركت طليعة طليحة وكان على رأسها سلمة بن خويلد أخوه بعض قوة استطلاع المسلمين فصنعوا كميناً وباغتوا المسلمين وقتلوا فارسين من مشهورى الصحابة هما ثابت بن أقرم وعُكّاشة بن محصن

— ثانيا : لايمكن تسيير هذه الألوية إلى البقاع النائية وسيرها إلى أقاصى الامبراطورية الإسلامية بينما الطرق الموصلة غير مأمونة حيث يسكنها أقوام مرتدون ثائرون ، وإذا كان المرتدون من بنى عبس وذبيان ومن إليهم عندما قسموا رجالهم فى مواطن المياه في ذى القصة قد مكنوا المسلمين من هزيمتهم فإنه يبعد أن يجرى أبو بكر على هذه الوتيرة فيكال له بهذا الكيل عينه .

فلما رأى المسلمون ذلك هالهم الأمر وجزعوا فلما رأى خالد ذلك مال بهم إلى حى من أحياء طىء قائلا « هل لكم أن أميل الى حى من أحياء العرب كثير عددهم شديدة شوكتهم » .

وفى نفسى من هذه الرواية شىء ذلك :

(ا) لأن جيش خالد لم يلتق بجيش طليحة قبل ميل خالد بالمسلمين إلى طىء (على ماسنذكر) حتى يقع الجزع . وليس من المعقول أن يجزع المسلمون من قوة جيش طليحة ـ إذا كانوا قد رأوهم ـ فيولى خالد ظهره . لأن الجيشين إذا التقيا تعذر على أحدهما أن يولى ظهره إلا مدحوراً ولو إلى حين وشىء من ذلك لم يقع .

(ب) إن طيئاً لها فى جيش طليحة فرقتان ربما استغل هذا وجودهما عنده فأخذهم رهائن إذا علم بإيواء قومهم للمسلمين حتى يجلوهم وفى ذلك خطر أى خطر على جيش خالد .

وبعض الروايات تقول إن خالداً سلك طريقاً ينتهى إلى بزاخة وفى آخر هذا الطريق تـكون أحياء بنى أسد وطىء قد قرب بعضها من بعض وهذا الطريق هو أقصر الطرق الموصلة إلى هناك حيث يخترق الربذة ووادى الركبة ثم ينحدر الى وادى الرمة وأشاع خالد أنه يريد الزحف على طىء حتى تظل طىء ثابتة فى مكانها ، ولـكى لا يقوم طليحة لنجدتهم سلك الطريق الذى يخترق وادى الرمة لأن الخطر حينئذ يتهدد الفريقين ، ومن عادة القبائل أنه اذا لم يكن ثمة مايهددها من مظنة الغارة سارعت توا لنجدة جيرانها أما إذا ظنت الغارة بقيت فى مكانها لاتريم منه دون الذياد عنه ،

عرف خالد ذلك بحذقه وحنكته وحسن بصره فكاشف الخليفة بخطته هذه فى ذى القصة فأقرها أبو بكر قائلا له : « إنك إذا قاتلت أسداً وغطفان فإن رجالا منهم معك ينتظرون النصر وإذا رأوه حليفك كانوا معك على عدوك »

أشاع أبو بكر فى القبائل بحركة كيدية أنه يريد مقابلة خالد بمن معه من نحو خيبر فكان لهذه الإشاعة وقع ارتجفت منه قلوب المرتدين جميعاً فى تلك الديار من أسد وغطفان وطىء لأن معنى لقاء أبى بكر بخالد شطر خيبر أن يقضوا على هذه الأحياء جميعاً بحركة تطويق (كماشة) تخضد شوكة هذه الأحياء واحداً بعد الآخر من الشمال والجنوب ، ولهذه الخطة التى اتخذها خالد مزاياها العظيمة فهى تسهل مهمة عدى بن حاتم فى استمالة قومه إلى المسلمين بمن لا يزالون مترددين بين الإسلام والجاهلية وتلقى الرعب فى قلوب الثابتين على جاهليتهم ، فضلا عن بقاء كل قبيلة فى مكانها لتيسير إخضاعها ، ومن مزاياها أيضا إبطال ذلك المسعى الوبىء الذى جهد له عيينة ابن حصن الفزارى جهده وهو إعادة الحلف الجاهلى بين أسد وغطفان وطىء محرضاً غطفان بقولته : « والله لئن نتبع نبياً مع الحلفيين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش » ولعمر الحق لو أن هذا الحلف قد تم لكون جبهة يصعب التغلب عليها .

فكان لخطة خالد هذه من الجمع بين التدبير السياسى والتدبير العسكرى مانترك للأجيال استجلاء آياتها ، وتقدير هذه العبقرية الكريمة التى تمخضت عنها تلك الآيات .

ماذا حدث فى صفوفهم ؟

تجاوبت فى الخارج أحداث مع ما يدور فى خلد خالد فقد قدر أن سيفت فى عضد طىء توقعهم الهجوم عليهم ؛ فكان تقديره فى عالم الواقع ضربة لازب ، إذ تقدمت طىء على ألسنة شيوخها لعدى بن حاتم تطلب منه أن يلتمس من خالد ألا يسرع فى الهجوم على بنى أسد حتى يستقدموا رجالهم من ديارهم ثم لا يعاملهم معاملة أعداء يتربص بهم فقد اتفقوا على مساعدة خالد والعمل معه وتحت قيادته ، ومن ثم فقد تداعى حلف الجاهلية الذى دعا إليه عيينة ، وقديماً كان - كما لا يزال - للخطط الحربية أثرها فى مجريات السياسة بين الأقوام والأمم .

بعث الطائيون إلى طلحة من يقول له : إن إخوانهم عنده وإن خالداً قد زحف برجاله يريدهم فليكن هؤلاء الرجال فى بلادهم ليذبوا عنها ، فعادت قبيلة غوث ولم تلبث أن عادت جديلة بعدها وبذلك انفصل عن طلحة أقوى عناصر البادية وأكثرها عدداً ، ثم جددت طىء إسلامها وأمدت خالداً بألف مقاتل ، ومن هنا نعلم صدق ما ذهبنا إليه من أن خالداً لم يمل إلى طىء ازوراراً من لقاء طلحة ولو كان كذلك ما ظفر بهذه النتائج ، ولتعقبه طلحة فى ديار طىء ولساعدت هذه بدورها طليحة ، فيكون خالد بين المطرقة والسندان ، ولعمرى كيف يجوز فى منطق سليم أن يقاس المسلمون فى ثورة على المرتدين ؛ وإيمان بجزاء الشهداء فى عليين ؛ فى صفوف مقاتله « كالبنيان المرصوص » فى قيادة عبقرية لا نظير لها فى ذلك الحين ، أقول كيف يستسيغ المنطق أن يقاس كل أولئك ببعض الغوغاء فى معارك كمعارك

الانتخاب ، بين لجان الأحزاب ، حين يفر العرمرم من الرجال لرؤيتهم دم الجريح يثعب من ضربة هراوة شيخ الخفراء ، وإنى لو لم أجد رواية تدفعها وتناقضها لكانت عندى فى ميزان المرجوحية والضعف على صراط مستقيم .

القتال . . .

زحف خالد إلى ديار بنى أسـد بعد أن جعل ميمنته من الأعراب وميسرته من الأنصار والمهاجرين ، وكان طلحة قد عبأ جيشه فجعل عيينة ابن حصن فى سبعمائة فارس من غطفان فى المقدمة ، وكان طليحة فى القلب يدير الموقعة وقد أحاط به أربعون فتى من أنهد فتيان بنى أسد وأجلدهم على الاستماتة والدفاع عنه وجعل سلمة أخاه يقود إحدى المجنبتين وحبال بن سلمة ابن خويلد على الأخرى وتقول بعض الروايات إن حبالا هذا هو ابن خويلد ، وقد نقل الروايتين العلامة هيكل ، والذى أرجحه أن حبال ابن سلمة هو الذى كان يقود الجيوش فى البراخة أما حبال بن خويلد فهو الذى قتل على ما أحسب فى البقعاء ، قال زياد بن حنظلة فى معركة البقعاء بين الصديق وأحزاب الردة ومقتل حبال :

أراح على نواهقها علياً   وج لهن مهجته حبال

ورتب خالد جيشه فجعل المهاجرين والأنصار فى الميسرة ورجال القبائل (الأعراب) فى الميمنة والقلب لسوادهم وكثرتهم ورأى طلحة أن هذه الميمنة من الأعراب غير متكافئة فى قوتها مع الميسرة وأدرك بذلك نقطة الضعف فى جيش خالد فهاجم الميمنة وسارع بميسرته من الفرسان إلى الضغط عليها فارتدت على أعقابها كما ارتدت بالأمس من دينها ولما رأت

الميسرة تأثير فرار الميمنة عليها انسحبت بدورها لتأمن الالتفاف بها فصاح فيهم خالد : « يا أنصار الله » وترجل عن فرسه واقتحم الجحفل اللجب من رجال العدو لا يتجه إلى جهة من جهاته إلا هزمها ، ولا يقترب منه قرم إلا هد بناءه هدآ ، وهنا تدارك المسلمون الأمر وسرت فيهم روح خالد الوثابة الجرىء ، فوثبوا على الأعداء وثبة رجل واحد ، وتقدم بعض الصحابة يلتمس من خالد أن يشرف على المعركة من المؤخرة ويترك الصف الأول لجنده حين رأوا الخطر يهدده من كل مكان فأبى ، وتقدم رجل من طىء لما رأى انسحاب المسلمين فى أول الأمر يقترح على خالد أن يعتصم بجبلى سلمى وأجأ فرده خالد رد الواثق المؤمن : « إنى أعتصم بالله وحده » وكان ما كان هزيمة العدو .

فلقد حار عيينة بن حصن فى أمره ، يقول لطليحة : هل جاء الوحى ؟ فيقول : لا . فيرجع فيقاتل ثم يعود فيقول الثانية وهذا يقول : لا . وفى الكرة الثالثة أجاب طليحة بما يدل على الهزيمة فصاح عيينة : « يا بنى فزارة هذا والله كذاب » ولم يبق أحد من فتيان طلحة الأربعين فقد قتلوا جميعاً ، وهنا التف بكسائه ثم وثب على فرسه وأركب امرأته بعيراً وأزمع الفرار وصاح به نفر من قومه : ماذا تأمر بعد هذا ؟ قال : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بنفسه فليفعل ، ولكنهم لم يفعلوا سوى التسليم .

ورأى بنو عامر بن صعصعة مبلغ انتصار خالد على جيرانهم فأرادوا أن يعبروا عن سرورهم بنصره فوفدوا ومعهم أحمال ثقيلة من السلاح أخذ خالد يوزعها بدوره على القبائل المنضوية تحت لوائه تمهيداً للوثبة الكبرى

بل للوثبات المقبلة ، ثم فرض على بنى أســـد ـ وقد أقام فيهم فترة ليست بالقصيرة ـ أن ينزعوا كثيراً من سلاحهم ليؤدوه إليه ، فأضاف ذلك إليه قوة مادية لا يستهان بها كما أمنه ضعف أعدائه من تمرد جديد ، وانتهى إلى الصديق نبأ هذه الانتصارات فبعث إليه يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً واتق الله فى أمرك فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جد فى أمرك ولا تلن ، ولا تظفر بأحد قتل من المسلمين إلا نكلت به ، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله » .

وأحسب أن الصديق حين أطلق يد خالد يقتل من رأى فى قتله صلاحاً إنما أراد أن يرهب من تحدثه نفسه بأن يخل بالنظام ، ومن عساه يحاول من جديد أن يخرج على القانون العام وهو ما عرفته الأمم الظافرة فى عصرنا الحديث بمحاكمة « مجرمى الحرب » . . . وقد رأى جماعة من هؤلاء مبلغ سطوة خالد وبطشه فوفدوا على أبى بكر يطلبون الصلح ، فخيرهم الصديق بين حرب مجلية ، أو حطة مخزية ! فقالوا :

ـ ياخليفة رسول الله ، الحرب المجلية قد عرفناها . فما الحطة المخزية ؟ .

قال :

ـ تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتتركون أقواماً يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه وأصحابه أمراً يعذرونكم به ، وتؤدون ما أصبتم منا (التعويضات) ولا نؤدى ما أصبنا منكم إلخ . .

ثم فر طليحة وامرأته ونزل فى بنى كلب من قضاعة بالشام حتى أسلمت أسد وغطفان فأسلم وخرج معتمراً فى أيام عمر ولقيه بالمدينة فبايعه ، وبعثه

فى عساكر الشام فأبلى فى الفتح ، ويروى ابن كثير أنه اعتمر أيام الصديق واستحيى أن يواجهه مدة حياته وقد رجع فشهد الفتح تحت راية خالد وكتب الصديق إلى خالد : « أن استشره ولا تؤمّره » .

ولم يكتف بنصره فى معركة بزاخة ولكنه أرسل سرايا تتعقب المشردين للبقاء فى أنحاء مختلفة رغم اضطراره فى البزاخة ليقبل إسلام المرتدين ، ويتولى حكم المناطق المستسلمة من مناطق القتال ، ولم يرد خالد بإرسال تلك السرايا أن يحصر غرضه فى القضاء على المشردين بقدر ما كان غرضه الأول إرهاب القبائل التى تحاول إيواء مثل أولئك اللاجئين إليها ، وهو بهذه الذريعة استطاع أن يهون على قواته مؤونة إخضاع تلك القبائل ووفود زعمائها إليه ومعاونتها لقواته فى تعقب المجرمين ، ولكن جماعة من المنهزمين قد تجمعوا حول امرأة تدعى سلمى بنت مالك المكناة بأم زمل وكانت زعيمة فى قومها وأرادوا أن يتواثبوا من جديد ولكن خالداً قام بنفسه وتولى إدارة المعركة لإخضاع هؤلاء . فحدثت معركة (ظفر) قرب الحوأب على طريق (البصرة ـ المدينة) وكان القتال شديداً عنيفاً وقد أحاط مائة من فرسان فزارة وأسد يذبون عن جملها وهى تحرضهم أجمعين ، فأحاط فريق من أصحاب خالد بهؤلاء المائة حتى أبادوهم ثم عقروا الجمل ، ويروون أن الرسول قد تنبأ بهذه المعركة لغرابة شأن المرأة حين يستسلم الرجال من كل مكان وهى لا تريم دون مواصلة القتال فذكر الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون أن ابن الأثير ذكره فى النهاية بلفظ « ليت شعرى أيتكن صاحب الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب » .

إلى البطاح ...

إن امرأة لم تدع النبوة يوماً ما على ما بلغنا من ظاهر كلام الأولين ، فأى باعث إذن دفع سَجاح إلى أن تدعى النبوة وتزعم أنه يوحى إليها فيصطفق حولها بنو تغلب وعرب الحيرة جميعاً ؟ ؟ . . . (لعل (١) إصبعاً من أصابع الاستعمار الفارسى فى ذلك الحين ، أو يداً من أيدى الرومانيين قد امتدت إلى هذه المرأة ، إلى جيبها وعقلها ـ أو قلبها ـ) فقامت بهذه المغامرة الطارئة التى سرعان ما تبددت وتلاشت آثارها ، ولم تستطع المرأة ولا المحرضون لها أن يضعفوا من قوة الإسلام ونفوذه ، بل لقد صاروا بعد قليل بحيث أخذت قبضة خالد القوية تطرق عليهم أبوابهم طرقات مروعة كى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ونزلت المرأة على قومها من بنى تميم مزودة بقرابتها من بنى يربوع الأمر الذى جعل مالك بن نويرة ينضم إليها ثم تنتهى إلى الإعجاب به فتسكن إليه وتتصل به اتصال قلب بقلب ! ! . . وكيف لا ؟ ؟ . . ومالك ذو المنظر الفاتن ، واللمة الكبيرة . والمنطق الأنيق العذب ، والنكتة الرائعة قد شاء أن يكون معها ليشيد لها مجداً كمجد السالفين من المرسلين . . كما أراد أن يستغلها بمن معها من بنى تغلب ليحارب مخالفيه ممن ينافسونه زعامة بنى تميم ، وكان هذا الخلاف من عوامل النجاح فى هذا الفصل من حياة خالد . . . .

---

(١) الصديق أبو بكر للدكتور هيكل .

فلقد أراد أن يزحف إلى بنى تميم وهو يعلم دقائق الحال عندهم ، وأنهم فوضى يختلف سَراتُهم على الزعامة والحكم ، فهى فرصة لعلها تضيع إلى غير رجعة إذا لم تنتهز سريعاً ، وهنا يقف الأنصار من خالد موقف المعارضين العاصين لأمر الزحف زاعمين أن ذلك مما ينافى عهد الخليفة إليهم « إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا ، ورد عليهم خالد : « إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى . . وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلنته بها فاتتنى ـ لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد له بمن معى من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » .

ثم سار بدونهم إلا أنهم لم يلبثوا أن رأوا أنفسهم فى حرج وهم يخشون ملامة الناس والتاريخ ، إن حاقت بخالد كارثة الهزيمة ثم رأوا أن خالداً إن أصاب خيراً فقد حُرِموه وإن أصابه شر فليجتنبنهم الناس لنكوصهم عن نصرته ، لذلك قرروا اللحاق به .

مقتل مالك بن نويرة :

ثم دهموا بنى يربوع بالبطاح ، وانسابت جنوده بين شعاب الحزن ، وقد ثوى القوم فى جحورهم فرقاً وخوفاً سيما وقد تخلت سجاح عنهم منذ قريب حين رأت التوفيق بين زعماء تميم مستعصياً ، ثم علمها باستشراف خالد لمداهمة هذا الحى ومن فيه ، فأخذ رجال خالد يأتونه بكل من يجدونه حتى أتت سرية بمالك بن نويرة ورأى اختلاف آحاد السرية فيما يدلون ، فمن

قائل بأنه أقر بالصلاة دون الزكاة ، ومن قائل بأنه أقر بهما جميعاً ، فرأى أن يحبسه ليتبين حاله ، ولعل خالداً قد ناظره قبل أن يحبسه ، ورأى فى لهجة الرجل ما ينم على شيء من عدم الولاء والإخلاص ، من نحو قوله : قد كان صاحبك ! . . يقول صاحبك . . ! ويعنى بذلك النبى صلى الله عليه وسلم مما تميز له خالد غيظاً ، وقتله بعد أن حبسه ، وقد اتفق تنفيذ قتله قبل الساعة التى كان على خالد أن يأمر فيها بقتله لسبب من الأسباب التافهة التى ترجع إلى بعض فوارق استعمال الألفاظ ومقولاتها عند بعض رجاله من كنانة ، فى ليلة من الليالى أمر خالد بسبب ما رأى من شدة البرد ـ وقد كان القتال فى شهر سبتمبر أو أكتوبر من سنة ٦٣٢ م جمادى الآخرة أو رجب من سنة ١٤ هـ ـ أن أدفئوا أسراكم ، وكلمة « الدفء » فى لغة كنانة مقولة على القتل ، فقتل ضرار بن الأزور مالكا ومن معه ، وكذلك فعل قومه وسمع خالد ضوضاء القوم فسأل فأخبر فقال : ـ إذا أراد الله أمراً أصابه .

تهالك وافتيات على خالد

ثم يجرى حول هاتين الروايتين المندمجتين روايات مُسفّة ، ولعل إغراق الناعين على خالد قتل مالك فى وصف أسباب القتل قد أرادوا إلباس الأمر ـ شأن ألسنة الاتهام ـ لبوس النزوة الجامحة ، والهوى العنيف ، فقالوا بأن خالداً بنى بليلى ابنة المنهال زوج مالك فى عدتها ، وزاد بعضهم « أنه كان يحبها فى الجاهلية » ، وأطنب آخرون فى وصف جمالها البارع ، ووجهها المثير ؛ ووصفوها من إخمص القدم إلى مفرق الرأس ، على أن المحقق ابن كثير فى (البداية والنهاية ج : ٦) يقول « واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة وكانت جميلة ، فلما حلت بنى بها » .

وقد كثر الكلام بين أبى قتادة وبين خالد حتى شكا الأول إلى الصدّيق وأخذه الغضب وأقسم لا يقاتل مع خالد أبداً .

وقد روينا لمالك شعراً يحرض به على منع الزكاة :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا : « الدين دين محمد »

أى أنه منع الزكاة وقال لقومه خذوا أموالكم فالدين لمحمد لا لأبى بكر وكان ذلك منطق اللؤماء من مانعى الزكاة حيث يفسرون الآية : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها إلخ . . . » بأن الأخذ مخصوص بمن توجه الخطاب إليه وهو محمد فى قوله تعالى : « خذ » . . . فلا ضير على خالد إذا قتل مالكا وهو واحد من عشرات المئين قتلوا بحق . ويمكننى تفسير موقف أحد الأنصار من خالد عقب ترددهم فى المضى معه لقتال مالك بن نويرة بما وجد فى النفس على خالد لإصراره غير مكترث بتخلفهم ، وأبو قتادة أحد القادة الذين أشاروا بالتخلف ، فإحداث الجلبة والضوضاء وإثارة قضية كهذه القضية التى نحن بصددها ملهاة كبرى للناس فى مجتمعاتهم تشغلهم عن طَرْق حديث التخلف والتردد والتمسح فى أمر الخليفة ، وعلى أية حال فقد استطاع أبو قتادة أن يؤثر على سمعة خالد فى المدينة تأثيراً تجاوب مع ما فى نفس عمر بن الخطاب وسالم وعبد الرحمن وعبد الله بن عمر منذ مذبحة جذيمة ، فصاح عمر فى الخليفة : « اعزل خالداً فإن فى سيفه لرهقاً » ، ولكن الخليفة قد وقف من خالداً موقف الواثق منه المعجب بعبقريته الموازن بين

هناته وحسناته والمقدر لهذه الحسنات ومداها فى كيان الإسلام والمسلمين لذلك قال : « هبه يا عمر تأول فأخطأ . فارفع لسانك عن خالد » ثم أراد أن يقطع حبل الكلام فى خالد وعزله فقال فى صرامة وتوكيد : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » بيد أن عاملا مهماً من عوامل إثارة هذا الأمر حول خالد هو قدوم متمم بن نويرة أخى مالك وهو شاعر مجيد موتور أذكى الغيظ فى نفوس خصوم خالد ، وألهب مشاعر الذين آخذوه على ما فعل :

لقد لامنى عند العبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك
وقال أتبكى كل قبر رأيته ؟ ؟ ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت : إن الأسى يبعث الأسى ... فدعنى فهذا كله قبر مالك

بصيص من النور

عزّ لنا أن نراجع حديثاً دار بين عمر وبين متمم بن نويرة إذ سمعه عمر يرثى أخاه بقوله :

وكنا كندمانى جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير ما حيينا وقبلنا ... أباد المنايا قومَ كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال عمر : « هذا والله التأبين ؛ ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك » .

فقال متمم : « والله لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته » .

فالذين ينعَون على خالد قتله مالكا إنما يهدفون إلى الحكم على مالك بأنه امرؤ مسلم قتل ظلماً فتسعفنا هذه الشهادة من أخيه والمطالب بدمه بأنه لم يمت كما مات زيد بن الخطاب على الإسلام ، ولو مات على الإسلام ما حزن عليه ولا رثاه ولكان رجاؤه فى العافية أدعى إلى الصبر .

وأرسل أبو بكر إلى خالد يدعوه فقدم من البطاح بعد أن لبث فترة ليست بالقصيرة بين شعف الجبال وبطون الوهاد ، فكان أشعث أغبر ملوث الثياب بالدماء ودخل المدينة متسربلا فى درع علاه الصدأ من الدماء وغرز فى عمامته النشاب ، فلما انتهى إلى المسجد قام إليه عمر وانتزع منه الأسهم فحطمها قائلا :

- « أرياء ؟ ! قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بالجنادل » ، وخالد لا يكلمه ، ودخل على الصديق فناقشه وسمع حجته فعذره وتجاوز عما كان منه فخرج من عنده وعمر جالس فى المسجد فقال خالد :

- هلم إلىّ يا ابن أم شملة .

فلم يرد عليه عمر وعرف أن الخليفة قد رضى عنه .

مسيلمة . . .

وهذا مسيلمة متنبىء بنى حنيفة . . . لقد استفحل أمره وصار بحيث لم يعد المسلمون - فى قوتهم ومنعتهم بعد هذه الانتصارات الخالديه وعلى الرغم منها - شيئاً يحسب حسابه فى اليمامة حيث يعتصم مسيلمة وجيشه الجرار ، وأدرك خالد خطورة الأمر الذى صار مشرفاً عليه وهو الهجوم على اليمامة

فهذب جيشه من العناصر المتخاذلة كالأعراب وغير أهل البلاء والبأس ، واكتفى بأن أخذ منهم سلاحهم مدداً وعدة ، ولكن هؤلاء كانوا قد ذهبوا إلى المدينة يبايعون الخليفة فاشترط عليهم أبو بكر أن يلحقوا بخالد ليقاتلوا فى صفوفه ومن كتب له خالد بلحاقهم به فهم آمنون ، وإلا فلا أمان . وهنا وقع التعديل فى خطة خالد فقد أقحم فى جيشه ـ على كره منه ـ فلول هزيمة وخبال ، وصحت فراسته فما كان من العدو إلا أن عرف نقاط الضعف فى المسلمين فأخذ يضغط عليها فيؤثر ذلك فى بقية الجيش حتى انهزم المسلمون مراراً ـ يتفرقون ثم يعودون ـ ونادى ثابت بن قيس خالداً : أخلصنا منهم ، فقال خالد : ذلك إليك ، فناد فى أصحابك ، وفعل قيس ، وتسللت إليه الأنصار رجلا رجلا ، ونادى خالد فى المهاجرين ، فأحدقوا به وولوا وجوههم إليه ، ثم نادى عدى ومكنف بن زيد الخيل بطىء فثابت إليهما ، وانحسر الأعراب الذين كانوا حشو المسلمين ، وهنا كان خالد قد ملك زمام الموقف يعمل فيه بكل حرية ، لاستماتة الذين معه وحسن نظامهم وبلائهم وطاعتهم ، فقد أجهضوا العدو فى نحوره ما يجد أحد مدخلا إلا أن يقتل منهم أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى اختلت صفوف العدو وضج من السيف ، ولكى تدرك مقدار بلاء خالد فى هذه المعركة من حيث صلابة أعدائهم وقوتهم وبأسهم اسمعه يقول :

ـ « شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ، ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة ، إنا لما فرغنا من طليحة ولم تكن له شوكة قلت كلمة ، والبلاء موكل بالقول : وما بنو حنيفة إلا كمن

لقينا ، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً ، ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر حتى قتل عدو الله ، فما ضرب أحد من بنى حنيفة بعده بسيف ، ولقد رأيتنى فى الحديقة وعانقنى رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض ، فأجؤه بخنجر فى سيفى ، وجعل يجؤنى بمعول فى سيفه ، فجرحنى سبع جراحات ، وقد جرحته جرحاً أثبته به فاسترخى فى يدى ، وما بى حركة من الجراح ، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقنى بالأجل فالحمد لله على ذلك »

كان بنو حنيفة مصفقين على اتباع مسيلمة كنبي يوحى إليه ، والرجل كان يمثل دور الكاهن المتبتل وكان للعصبية القبلية نصيب كبير فى تعظيم خطره ، وكانت له أقوال مسجوعة يرويها الراوون فى غاية السخف إلا أن قول أحدهم لطلحة يصدق هنا على مسيلمة : « إنا نعلم أنك كذاب ومحمد صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » يضاف إلى أولئك كله عامل جغرافى جعل بنى حنيفة يختلفون مناعة عمن لقى خالد من متمردة العرب ، ويصف المستر عبد الله فلبى فى كتاب « البلاد العربية الوهابية » هذه المنطقة التى تقوم بها اليوم قرية الجبيلة : « والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان ومعظمها أطلال دارسة ومقابر الصحابة على ضفة الترعة المقابلة للقرية وعلى مسافة نحو ربع الميل منها . وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل تسرى على المرء الانقباض الذى يعتريه من إدامة النظر إلى اللون الأغبر الذى لا يتغير ، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية المترامية التى سدت الوادى وبقرب الحى آبار كثيرة بعضها مطوى

بالحجارة يستقى منه أهل الحى دائماً . أما بيوت الحى فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها بمرور الأيام . أما ما بقى منها فلا بأس بحاله ويستدل منها على أن أهل تلك البيوت عنوا بصيانتها فدعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالحصى لتحمل على متونها روافد السقوف وقد شاهدت فى دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من الملاط المغطى بطبقة رقيقة من الحصى الأسمر لخزن التمور ولا تزال جدرانه ملوثة بعصارة التمر » ثم قال « ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر إلى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق فحسب . أما ما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد فى حياتى أرضاً مثله إذ لم أعثر فى أرباضه على شىء لا تنقبض له النفس فتجد أمامك طريقاً معرضاً لمهاب الرياح خالياً من الظاهرات الطبيعية ضارباً فى كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له ولا يعترضه فى ذلك التكوين الغريب سوى الحرف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع فى الشمال الشرقى (ثم يذهب إلى المكان الذى يقع فى الوادى الضيق من أطراف « عينه » عاصمة آل معمر القدماء بالقرب من عقرباء) فيقول : أما ربوع « عينة » التى اشتهرت من قديم الزمان بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبى المسيل شرقاً وغرباً نحو ميلين ، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين ، ونبتت أدغال الأثل فى البقاع التى وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل أما البلد الأصلى أو الحالة التى كانت يوماً ما موطناً لآل ابن معمر القدماء فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة فى صدر تلك المحلة الرحبة إلا أن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة ويمر عابر السبيل فى تلك

البيداء بين آونة وأخرى ، بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها ، وفى كل ناحية من نواحى تلك المحلة الوسيعة آبار نضب منها الماء وهى مطوية بالحجارة والآجر عليها أحواض مبنية بالصاروج ، أما ضفاف المسيل فدعمة بأيادات كالمسنيات على أشد ما تكون من متانة البنيان عقدها أصحابها فى وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه فى بطن المسيل ، فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ، ثم غدت تراباً فوق أنقاض بالية ، وشاهدت فى بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان فى عرض نصف قدم .

جزنا الأطلال وخرجنا من عيينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترقه أشجار الأثل فى عنفوان نموها والمنتشرة فى طول الأرض وعرضها إلى أن تنتهى فى طرف المحلة القائمة فى الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادى ، فسار بنا الظعن يطوى صوبه صعوداً وعرض الوادى فى أسفله نحو الميل ، وكلما ارتقى الإنسان صوب الوادى وارتفع عن أسفله ازداد انفراج الوادى إلى أن بلغ عرضه ميلين أو ثلاثة أميال ، ولما أرسلت رائد الطرف فى ميمنة الوادى بدا لى شعيب فى منخفض الوادى ، وقد قيل لى : إن هذا الوادى يأخذ فى الصعود مرة أخرى إلى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج (الجص) ويقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والمثاعب المنحدرة على جوانبه ، ولم يزل حتى الآن خزاناً لرى حقول القمح المزروعة فى وسط الخرائب ، وهناك شعيب عينة ينحدر من الهضبة التى

تفصل وادى حنيفة عن وادى سدوس اه » ذلك وصف المكان المروع الذى كان يرابط خلاله متنبىء بنى حنيفة تحصنه هذه العوامل الطبيعية المختلفة التعقيد ، ثم هذه الأراضى الخصبة الرسوبية الغنية التى تهون فى سبيل مراتعها الزهر التفدية والتضحية ، على أن عاملا من عوامل الشحذ والحفز على المضى فى المكابرة والتبجح عند مسيلمة ، ذلك هو الرسول الذى بعثه النبى إلى بنى حنيفة مزوداً بما له فيهم من قرابة وعرق ، وما عنده من قرآن وعلم (نهار الرّجال) أو (الرّجّال بن عنفوة) شر عالم سخر علمه ومنطقه ليشغب على العلم والمنطق ، فيقول للناس : إن فى القرآن ما يدل على أن مسيلمة شريك محمد فى الرسالة فكان أثره أبعد فى تقوية الروح المعنوية عند العامة والدهماء من مسيلمة نفسه ، وذهب (نهار الرجال) يعلم مسيلمة من أمر محمد وأعماله لكى يقلده فى وسائل الدعوة ، وهيهات من الأدعياء الغافلين أو شحة الجمال القدسى المضفاة على الأنبياء الصادقين .

* * *

روينا أن الصديق أرسل أحد عشر سرية إلى كافة الأنحاء وكان منها سريتان كربيئة أو قوة ساترة لقوات خالد على نمط القوات الصغيرة التى تعوق تقدم العدو حتى تصل القوات الرئيسية إلى المكان الصالح للقتال ، وكانت إحدى السريتين بقيـــادة شرحبيل بن حسنة وكانت مدداً للسرية الأخرى التى يقودها عكرمة والتى أصيبت بأول هزيمة منى بها المسلمون فى اليمامة ، وقد أراد شرحبيل أن يظفر بالنصر الذى أخفق فى الفوز به عكرمة ولكن لم يلبث أن ارتد بعد معركة قصيرة مع طليعة جند العدو وحرم نفر الانتصار ، ولقد لام خالد ـ بعد ذلك ـ شرحبيل أشد اللوم على أن اقتحم

جيشاً كبير العدد لا قبل له به ولم يتربص حتى تأتيه القوات الرئيسية ، ولامه أن ارتد لأول وهلة حتى كان من هزيمته قوة فى روحهم المعنوية ، كما روينا أن سجاح فرت من البطاح إلى اليمامة حيث تزوجها مسيلمة ، ثم رأت كيف يستهدف هذا الحى للحرب الضروس ففرت بدورها إلى قومها حيث لا رجعة ، وإن قيل بأنهم أعادوها إليه لأسباب ذكرت فى بطون الكتب ولكنها لا تعد فى نظر المؤرخ من الحقائق الثابتة .

يايوم اليمامة . . . . ! !

ذهبت الأنباء تسرى إلى آفاق الجزيرة حتى تقرع سمع مسيلمة الرابض المستأسد عن تلاحق جيوش خالد بن الوليد وخروجه من حدود بنى تميم يريد اليمامة ، وهنا أراد زعيم من زعماء بنى حنيفة يدعى « مجّاعة بن مرارة » أن ينتهز فرصة جلاء خالد عن البزاخة والبطاح فيخرج ليأخذ ثأراً له فى بنى تميم وبنى عامر ولا سيما وقد خضدت شوكتهم الحرب وخرج ما بقى من رجالهم الجلاد فى جيوش خالد وأدرك الرجل ثأره وكر راجعاً هانئاً بما غنم ، وعسكر فى مكان يقال له « خشم الحسية » فى بقعة يقال لها « ثنية المرار » إلى الجنوب ، وقد بلغ بالرجل التعب وأصحابه فنام ثمة وناموا ، ولم ينتبهوا من نومهم إلا على وقع الخيل تدهمهم سنابكها ، وعرف خالد أن هؤلاء من بنى حنيفة فظن أنهم خرجوا لقتاله فأمر بالقضاء عليهم ، فأخذوا وقتلوا .. ولم يبق عليهم أنهم خرجوا لثأر لهم ، ذلك لأنه سألهم عن الإسلام فقالوا : « نقول منا نبى ومنكم نبى » حتى إذا بلغ السيف من سارية بن عامر الحنفى هامته صاح يخاطب خالداً : « أيها الرجل : إن كنت تريد بهذه القرية

غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل ، وأشار إلى مجاعه ، ولم يحرك هذا النداء فى قلب خالد موطن رقة ولا مظنة حنان ورحمة ، ولكن نداء العقل والإرادة دعاه إلى استبقائه رهينة يدخره للأمر ويستشيره عند الحاجة وجعله مكبولا عنده فى قبته وجعل على حراسته امرأته الجديدة (ليلى ابنة المنهال) .

أما مسيلمة فقد خرج بعد أن عبأ قواته فى مكان (عقرباء) بطرف اليمامة تاركا الأموال وراء ظهره ليذب عنها ، وريف اليمامة بمن عليه من سكان قد خرج إلى عقرباء يريدها زبوناً شعواء ، ووقف شرحبيل بن مسيلمة يحرض الرجال ، ويحرك فيهم كامن الشعور ، ويلمس منهم موطن النعرة والحمية « يا بنى حنيفة : اليوم يوم الغيرة ، إن هزمتم تستهدف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » وتجمعت قوات مسيلمة هذا التجمع الواثب ، والذى جعل المؤرخين حين تعاظمهم شأنها يضربون فى بيداء الوهم فيقدرون هذه القوات بأربعين ألفاً كما نقل ذلك ابن جرير عن سيف بن عمر (ثم ينقض ابن جرير هذه الرواية بأخرى عن سيف بن عمر نفسه فى أخبار السنة الحادية عشرة بأن عدد الحنفيين عشرة آلاف) والذى جعل المؤرخ الفارسى مير خوندى يزعم أن عدد القتلى فى موقعة الحديقة سبعون ألفاً ، وعلى أى وجه فليس المقصود أن تكون قوات مسيلمة أربعين أو سبعين من الألوف لكى تتحقق معجزة القيادة فى هذا العدد القليل الذى لم يتجاوز السبعة الآلاف ، فإنه من الثابت أن قوة مسيلمة فى عقرباء كانت أعظم ما يمكن جمعه فى أكبر قبيل فى جزيرة

العرب . وعبأ مسيلمه قواته وكذلك فعل خالد إذ جعل على المهاجرين سالما مولى أبى حذيفة ، وجعل على الأنصار ثابت بن قيس بن شماس .

والتقى الفريقان فريق يذب عن حوزته ويدافع عن وطنه ويأخذ بحجزة العدد القليل عن ولوج داره ، وهو فى دفاعه أقوى مدافع ، له من وسائل الأيد والتجانس والرأى الجميع ، والعدد الكثير ما يجعل الغزاة يواجهون ما ليس فى طوقهم مواجهته ، سيما وهم فريق متباين الأنساب مختلف الدماء ، ترجع كل ثلة منه إلى أرومة ، وهم مع هذا لم يسلموا من التنابذ عند أول لقاء وإذ رمى المهاجرون والأنصار أهل البوادى بالجبن - وهو حديث - لعمر الحق - لا يفضى إلى خير - وقال المهاجرون لأميرهم سالم : أتخشى علينا من نفسك ؟ ! وهى قولة تعمل عملها فى نفس الكريم فقال ، على الفور :

- بئس حامل القرآن أنا إذن .

وهبك كنت مراسلا حربياً لصحيفة - إذا فرضت وجود الصحف عهدئذ - وسمعت أهل القرى يقولون لأهل البادية : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية » ثم يقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب ! ! » أما كنت تحكم على أولئك المتخاذلين بما دب فيهم من تراشق وهجو بأنهم مدحورون مغلوبون ؟ بلى . وإن القتال لفى أوله ، ولما تحتدم حميتهم ، إذ انهزموا ولم يثبتوا ، وزال المسلمون عن مواقعهم حتى وصلت قوة من العدو إلى فسطاط خالد ، وأرغم أن يزول عنه ، وأن يتقهقر بعيدا يبتغى سعة يفكر فى إنقاذ جيشه من هوة الهزيمة يتردّى فيها ، ودخل بنو حنيفة إلى فسطاط خالد فرأوا فيه امرأته

ليلى ، وعندها مجاعة بن مرارة يرسف فى أغلاله ، وصاح رجل منهم بليلى وحمل عليها بسيفه يرجف فى يده ويبرق ، فنادى مجاعة : « مه . وإنى لها جار ، فنعمت الحرة ، عليكم بالرجال » وأخذوا يتعقبون المسلمين بعد أن مزقوا القبة وقطعوا حبالها .

وإلى هنا نتساءل : هل قتل المسلمون وهم يتقهقرون كثيراً من بنى حنيفة ؟ أو قتلوا منهم من له خطر وشأن ؟ أجل وإن زيد بن الخطاب لفى سدفة من غبار المعركة ، إذ به يلمح الرّجال بن عنفوة القارىء الفقيه الخوان الخداع ، وقد كان على مقدمة العدو فشد عليه فقتله ، وزال بموته أول رجل يثير دواعى التعصب والحمية عند الخارجين على النظام ، وحسب بنى حنيفة من خسار .

أين خالد ؟

ذهبنا نبحث عن خالد فى هذا الجو المضطرب ، وهذه الغاشية الملمة ، حيث رُجّت الأرض رجا ، وبُث ثراها فكان هباء منبثا ، فإذا بنا نراه فى رباطة جأشه ، وقوة قلبه . ينظر نظر الخبير المفتن ، فيعرف كيف يعالج الداء العضال ، وصاح حين شخص هذه العلة النكراء - فى غضب القائد : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » وفى هذا التقسيم الذى أعلنت ضرورته وحصافته قادة الأجيال الحديثة ، فترى لكل مقاطعة فى دولة مثل انجلترا جيشها بشارته ، وهو تقسيم تفرضه الطبيعة فى عالم يتمايز بالخصائص والمقومات . ودوت صيحة خالد فى أسماع الجيش فنبهته إلى حقيقة أمره . وأخذ كل جماعة ينحاز بعضهم لبعض ، وهم يقولون « اليوم يستحى من الفرار » وهنا استراح خالد لهذه النتيجة التى تدل على ما بعدها من خير وبركة ، وكيف لا . وقد سرت فى دماء الناس كهربة من

الهيجان الشديد ، وثوران من الحمية ، فهنا رجال من حفظة القرآن تظلهم هالة من نور الله تسمو بنفوسهم فوق مراتب الحياة الدنيا ، وتريهم بهر الشهادة فى الله ، ويلوح لهم نعيم الجنة ببهائه وسناه عن كثب من ميدان القتال فينادى ثابت بن قيس(١) .

« بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين . اللهم إنى أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعنى أهل اليمامة - وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء - يعنى المسلمين » وينادى زيد بن الخطاب :

« والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل وألقى الله فأكلمه بحجتى ؛ غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم - أيها الناس - واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما » وينادى أبو حذيفة . « ياأهل القرآن . زينوا القرآن بالفعال » وينادى البراء بن مالك . « أين يا معشر المسلمين ! أنا البراء هلم إلىّ » وتواثب الناس من نظراء البراء وقرنائه يجتمعون حوله ، واندفع كل رجل من المسلمين فى فرقة يلقى بنفسه فى الوطيس يقاتل قائلا : « هكذا عنى حتى أريكم الجلاد » .

نظر خالد فإذا جيش مسيلمة يتقهقر ، وإذا المعركة قد تحولت منذ اللحظة التى انماز فيها كل فريق ، ولكن عنصرا من عناصر الحفز لا يزال يعمل ، ومصدرا من مصادر المقاومة والمجالدة فى صفوف عدوه يكمن ، ذلك هو الرجل الدميم الوجه العثيد القلب (مسيلمة) لذلك وطد عزمه على أن

---

(١) الصديق أبو بكر . لهيكل رحمه الله .

يمحوه من الوجود ، ورأى أن هذا العمل إذا تم فإنه يقرب منه النصر ويجعله دانيا مقبوض الزمام ، ثم نفر بفرسه يثب ويدور ويقول لفريق من الرجال اصطفاهم لحماية ظهره « لا أوتين من خلفي » ثم شد شدة مروعة ونادى بصيحة المعركة « وامحمداه » واخترق أسجاف الغبار وأثباج الرجال ، وانطلق كالسهم صوب مسيلمة الذى بادر إلى حمايته فريق من شباب قومه العتاريس ، وتقدم أبطالهم نحو خالد يذودونه ، فكانوا فى تتابعهم كجدول الماء تعترضه الصخرة العظيمة ومن حولها أخدود ، فلا يصل إليها الجدول إلا ليتحطم ويتكسر ثم يهوى نثيرا فى جرف سحيق ، وهكذا كانوا . فلا يدنوا من خالد أحد إلا هدّه هدّا ، ونظر مسيلمة فإذا حماته يتحاتّون كأغصان الشجرة الذابلة ، وإذا المنيـة تدنو وشيكة منه ، فماذا يصنع المسكين ؟! ولم ترمه الأقدار إلا فى يد من لا يرحم ! ماذا يصنع إلا أن يفر فرار الجبان ، وماذا يصنع أتباعه وأجناده بعد ذلك إلا أن يتبعوه فارا كما اتبعوه نبيئا منذ لحيظات ، وهنا انبعث صوت يقول : « يا بنى حنيفـة . الحديقة » إنه نداء الثاكل الذى يريد أن ينقذ ما يمكن إنقاذه . . ولات حين مناص . . ذلك المحكم بن الطفيل وقد أخذ الناس يفرون إليها مثخنى الجراح كلمى مهزومين ، وفى قلوبهم جراحات أخرى أبعد عن الاندمال من جراحات الأبدان ، ووقف المحكم وحوله كتيبة من رجاله يريدون تغطية انسحاب جيوشهم ليردوا عنها جيوشا ظافرة حتى يستطيعوا الانطواء إلى داخل الحديقة(١) . ولكن عبد الرحمن بن أبى بكر كان قد صوب الرمية

(١) هذه الحديقة كانت لمسيلمة وهي فسيحة الارجاء رحيبة الفضاء يحيط بها سور منيع يجعلها أشبه بالحصون منها بالحقول ، وكانت تسمى حديقة الرحمن ، ثم دعيت بعد هذه المعركة (حديقة الموت) .

سديدة إلى نحر المحكم ، فخر صريعاً بعد أن استطاع مسيلمة اللجوء إليها مع البقية الباقية من قومه .

* * *

ها هو ذا مسيلمة قد نجا من ضربة خالد الأولى ، ثم ها هو ذا قد تحصن فى حديقة ومعه أكثر قومه ، فهل حسب المسلمين من نتيجة الحرب أن يحاصروهم ويقطعوا عنهم الزاد والمؤنة ؟ أم لا يكتفى الثمل بنشوة النصر إلا أن يجنى النصر كاملا غير منقوص ؟ . . . وأحاط المسلمون بأسوار الحديقة يبتغون فيها ثلمة ينفذون منها ، أو فرجة يلجونها تغنيهم عن محاولة فتح بابها الوثيق ، فلم يعثروا ، عند ذلك قال البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى الحديقة » ، وقال بعضهم : « لا تفعل يا براء » حقا ماذا يفعل رجل بهذه الألوف من الرجال وهو يتسور عليهم الجدار ، بل قل ماذا يفعلون هم به إلا يبتلعه اللجى من البشر ، وأصر هذا على أن يلقوه عليهم : « والله لتطرحنى عليهم فيها » ورفعته ثلة من الجند على الرماح ، فلما أشرف على القوم من أعلا راعته كثرتهم فتردد وتراجع وقال : أنزلونى ، ولكنه عاد يقول : احملونى ، وتكرر ذلك منه وخشى أن يقال : « همّ ولم يفعل » وهنا نض عنه ثوبه ، وانقض كالنسر المفترس وألقى بنفسه وأخذ يصد القوم عن باب الحديقة ليأخذ برتاج الباب ، وتكاثروا حوله وهو يدفعهم عنه بمبارزته إياهم وتلقى ضرباتهم بدرقته ودروعه ومحاورتهم محاورة مصارعى الثيران حتى فتح الباب للمسلمين الذين طفقوا كالسيل المنهمر وقد أخذوا على أهل الحديقة الأرض والسماء ، وكأن العدو قد لجأ إليها لا ليفر

من الموت بل ليفر إليه ، ومع ذلك وقف بنو حنيفة يقاتلون قتال اليائسين من الحياة ، والموت حينئذ ضربة لازب ، واستحر القتـــل فى الفريقين ، ومسيلمة يحرض على القتال للدفاع عن الأحساب كما يقول .

وكأن الله يريد أن يجعل من وحشى قاتل الحمزة (عم النبي) يوم أحد قاتلا لمسيلمة عدو النبي يوم الحديقة ، ووحشىّ عبد أسود حديد البصر سديد الرماية ، إذا شد بيده على رمحه أو نبله فويل لمن يريد .

زجر وحشى وهز رمحه حتى رضى عنها فصوبها إلى نحر مسيلمة ، ثم أجهز أحد الأنصار وكان قريباً منهما بسيفه على رقبة مسيلمة وصاح قائل « قتله العبد الأسود » ، وأجاب وحشى : « ربك أعلم أينا قتله » .

وسمعت بنو حنيفة بقتل مسيلمة بعد قتل الرّجال والمحَــكَم بن الطفيل وغيرهما من الغطاريف فوهنت عزائمهم واستسلموا للسيف يمضى حكمه ، وخرج خالد من فسطاطه ليصحب مجاعة بن مرارة فأخذه مكبولا وصار يسأله عن قتلى بنى حنيفة ، ويكشف عن وجوههم حتى إذا وقع خالد على رجل وسيم قال : من هذا ؟ قال مجاعة : إنه محكم بن الطفيل . حتى وقع على جثة مسيلمة فقال مجاعة : « هذا صاحبكم قد فرغتم منه » فأجابه خالد : « هذا الذى فعل بكم ما فعل » . .

تطهير الجيوب :

قد عرفت من سياق الحوادث أن خالدا لا يهدأ حتى يطمئن إلى أن النصر قد بلغ نهايته ، فإن صرامته الفاتكة لتأبى الرضى بمجرد الغلبة على

الخصم والظفر به ما لم يؤمن بأنه قد اجتث جذع الفتنة ، ولم يبق فى عدوه مظنة خطر وشر ، تلك سنته أبداً فى حربه وسياسته . لذلك لم يصغ لإشارة الشابين النبيلين عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر : « ارتحل بنا وبالناس فننزل على الحصون » بل قال : « دعانى أبث الخيل فألقط من ليس بالحصون ثم أرى رأيى » وقد كان . حتى إذا أيقن أنه لم يبق من يستطيع المقاومة من بنى حنيفـــة ، أراد أن يزحف على الحصون ليقضى على البقية الباقية .

وطنية عربية وذمة مسلم

ورأى مجاعة ما قد عزم خالد عليه وهو إذ يعلم أنه لم يبق فى تلك الحصون سوى خيرات اليمامة وثروتها ثم تراثها الأدبى من شرف كريم وعرض مصون وحريم لم تصل إليها يد السبى والاسترقاق لأن صدورا من الفولاذ كانت إلى لحظات تقف دون هذه الأمجاد الإنسانية ، والمعانى الغالية الخالدة ، وهو يعلم كذلك أن خالدا قد وثق به بعض الثقة ، لذا عول على أن يقف فى طريق خالد مستغلا هذه الثقة ، فماذا يفعل ؟ لقد بات ليلة يفكر حتى إذا اتضح له السبيل ووضح له المنهج أصبح يريد السعى على نور من قلبه وعقله .

ـ أيها الأمير : إنه لم يأتك إلا سَرَعانُ الناس ، ووالله إن الحصون لمملوءة رجالا ، فهل لك إلى الصلح على ما ورائى ؟ وهنا صاح خالد :

ـ ويلك ما تقول . ؟ ! ! فأجاب الرجل فى لهجة الجازم الواثق المطمئن :

ـ هو والله الحق فهلم أصالحك عن قومى .

وهنا ترتسم فى ذهن خالد خواطر قوامها الحذر والافتراض وتقدير العوامل المختلفة ، إن معه قوما قد أنهكتهم المعارك ، وقُضى على أكثر أشرافهم وحملة القرآن فيهم وناهيك بانقراض حملة القرآن كارثة حسْب المسلمين منها كارثة فى وقت ليس لهم مصاحف تتلى ولا نسخ القرآن دُولةً بين الجماهير المؤمنة ، فضلا عن أن الباقين معه حراص على أن يعودوا منتصرين سالمين وهذان الوضعان الفارهان هما الساعة ملك أيديهم فلا يقامر بهما ، وهنا مد

خالد يده ثم كتب له عهده الذى فيه أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا السبى وقام مجاعة يودع خالدا قائلا :

ـ « الآن آتى قومى فأشاورهم وننظر فيما صنعت ثم أرجع إليك » ثم انطلق حتى أتى الحصون وليس فيها غير النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فأمر النساء أن يلبسن الحديد وينشرن شعورهن ويتظاهرن مشرفات من أبراج الحصون ، ونظر خالد فرأى ما أيقن معه صدق الرجل ومبلغ ما كان يستهدف له من المقاومة لو لم يعاهد هؤلاء القوم الذين بقيت لهم هذه البقية من الأجناد تحتويها هذه الأسوار المشيدة ، فليحمد إذن ربه ومن معه وليرض بأىٍّ مما يقاوله عليه مجاعة ما دام فيه السلامة والعافية ، وليت شعرى ماذا كان يكون لو علم خالد أن أولئك ظباء الحى ، وغانيات الوادى الكواعب ، ثم رجع الرجل يقول فى لغة الآسف ولهجة الوجل:

ـ « لقد أبوا على ما صالحتك عليه ، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً علىّ وهم منى برآء » وأعاد خالد نظره إلى رؤوس الحصون وقد اسودت واستأنف الرجل كلامه « ولكن إن شئتَ صنعتَ شيئاً فعزمتُ على القوم » ورد خالد على الفور :

ـ ما هو ؟ قال :

ـ تصالحنى على نصف ما صالحتنى عليه . قال :

ـ قد فعلت . قال :

ـ قد صالحتك . . . وكانت هذه صيغة المصالحة « هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة بن عمير (وفلاناً وفلاناً) قاضاهم على

الصفراء والبيضاء (أى الذهب والفضة) ونصف السبي والحلقة «السلاح» والكراع «الماشية» وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يُسلموا. ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين على الوفاء».

وآن لخالد أن يدخل الحصون ليدرك مبلغ ظفره باستسلام هذه الجيوش العظيمة، فلما فعل لم يجد بها إلا ابتسامات مرتسمة على شفاه الفتيات تقرأ من ثناياهن الخوف والضراعة والأمل المرجّى فى وفاء خالد الشهم الوفى الأبى، ونظر خالد إلى مجاعة مذهولا من هذه الخديعة الكبرى وقال:

ـ ويحك خدعتنى ! ! ؟ .

ـ قومى ؛ ولم أستطع إلا ما صنعت .

وكأن خالداً قد أيقن أن الرجل لم يصنع إلا ما أملته عليه نبالة المقصد فأجاز الصلح، وسرح صاحبه، ويتجلى نبل خالد وشرفه، كذلك بصورة أخرى أروع حين يأتيه سلامة بن وقس رسول الخليفة بكتاب يأمره فيه بأن يقتل كل محتلم، وألا يبقى على كل من يقدر على حمل السلاح فيرد بكتاب منه إلى الصديق يقول له فيه «إن صلحى قد سبق كتابك».

ولعمرى لو كان خالد لم يصدر فى تصرفه عن وفاء مطبوع، ومروءة من صنع الله لكان له فى أكثر من مناسبة فى هذه القضية مندوحة تبرر له التحرر من كل قيد، فمن انكشاف أمر الحصون وما فيها، ومن كتاب الخليفة، إلى ما ارتكبته شخصية لها قدرها ومقامها فى بنى حنيفة، مما يعد فى

نظر كل إنسان إحدى بوادر النكث من جانب المغلوب إزاء غالبه، وذلك أن سلمة بن عمير وهو أحد الموقعين على وثيقة الصلح جاء يستأذن فى الدخول على خالد، وكلمه فى ذلك مجاعة لكونه محل ثقة خالد ففعل وهو لا يدرى غرض صاحبه فأقبل سلمة يريد الدخول. فقال خالد:

ـ من هذا ؟ فقال مجاعة :

ـ هذا الذى طلب الإذن لحاجة له عندك ونصيحة، وقد كلمتك فيه فأذنت له.

وكأن خالداً قد أدرك بفراسته، ونفاذ بصيرته أمراً يريبه فى هيئة الرجل ـ أعنى سلمة ـ فصاح على الفور:

ـ أخرجوه عنى . فأخرجوه وفتشوه فوجدوا معه السيف، وقد أثار ذلك سخط الحضور فأوثقوه، وأراد أن يعاهدهم أن يفكوا وثاقه ولا يفعل ما كان يريد، ولكنهم لم يثقوا بحمقه، ولم يأمنوا لمكره، وحينئذ أجال السيف ـ الذى كان يريد اغتيال خالد به ـ على حلقه، وبادر الله بنفسه، ومع ذلك مضى الفاتح الرحيم فى التزام عهده، وذلك من أكرم ما عرف من ضروب الوفاء مذ كان الوفاء خلة من خلال الإنسان الراقى والحيوان المفطور. وهنا يحق لنا أن نقف خاشعين تحية لهذا الزعيم الأشوس مجّاعة ابن مُرارة وتحية تتأرج بنوافح الروض لأبى سليمان على وفاء العربى وذمة المسلم.

فى غبار المعركة ...

إلى هنا تنتهى المعركة الفاصلة فى حياة العرب والتى لمّ الله بها شعثهم،

ودان على أثرها المردة من المرتدين لكى تبنى هذه الدعوة العربية من مناكبهم سوراً فولاذياً متحركا يسير مسرعا فى غبار الخيل مقتحماً أجناد كسرى المصفدة فى قيودها لائذة من الهزيمة بالتكبيل والتنكيل، فى حياة مظهرها السيادة وجوهرها العبودية والذل والمرض، ولعمرى لا دواء يكشف عن شياطين الاستعمار الطلاء الكاذب على سياستهم إلا ومضات البهاليل من بنى عدنان وأحفاد يعرب الأشاوس، لذا هرع العرب إلى أبواب الامبراطوريتين يطرقونها بقبضات أيديهم، ويلوون رتجها بسواعدهم، ثم يتدفقون فى الأمصار يحملون مشعل الحرية وقسطاس العدالة، لتتحرر النفوس، وتتساوى الرؤوس، ولا تعنو الجباه الإنسانية إلا لله وحده. فهل تحسب أن مثل هذه المعركة التى اشترى بها العرب طلائع مجدهم، وبنوا عليها أسس حضارتهم قد انتهت بالثمن الزهيد من وقتهم وجهدهم ودمائهم؟.. لا. وإنما رحض العرب عن أنفسهم وساوس الأدعياء الكاذبين، وخبائث الطغاة الجاهلين، بما بذلوا من شهادة الشهداء، الذين صدقوا الفداء، وزكت منهم الدماء.

استحر القتل فى بنى حنيفة خلال المعركة، وقتل من المسلمين عدد يبلغ خمس من قتل من الحنفيين، ولكن القتلى من اليمامة وإن كثروا ليسوا عدل القتلى من جند خالد وإن قلوا، وحسب هؤلاء أن ذهب من رجالهم بضعة وثلاثون من الحفاظ كما أسلفنا، وإن قلنا إنها كارثة فإن رحمة الله وحسن تأتّى المسلمين وسرعتهم وحزمهم كل أولئك قد خفف من هول الكارثة إذ أقبلوا بعد ذلك يجمعون القرآن وينسخون المصاحف، وذلك أثر خالد من

آثار هذه المعركة يبقى ما بقى القرآن، ومن يدرى؟ لعل المسلمين إذا لم تنبههم هذه الكارثة لتأخر جمع القرآن سنين الله أعلم كم تكون.

ولقد دامت المعركة من انفلاق الصبح حتى العصر يمتزج غبار الأرض بدماء القتلى، فيتطاير منهما فى الهواء أبابيل تقع على الوجوه فتلتصق بها وتتكور على الصدور كأنها بصمات القدر على أجسام الأحياء، ليأخذوا بعضاً من عناصر أمواتهم وعناصر مثواهم ومستقرهم ليتعلقوا دائماً بهم، فتشيل فى نفوسهم كفة الحياة الوادعة، وتقوى غريزة النضال والاقتحام، فكلما رأى الواحد منهم ثوب المعركة المصطبغ، أو شعره المضمخ أحدث احمرار الدماء فى رأسه ثورة عقرباء، وبطولة اليمامة، وبسالة الحديقة، فلا يفزع إذا جد الجد أو رأى الموت تدنو ذوائبه على أسنة الحراب فكأن هذه المعركة كانت إعداداً للمستقبل، وتحضيرا نفسياً وفنياً يمكن أن يلقى ضوءا على مصدر القوة التى بهرت الدنيا بعد ذلك، أو كما نقول بلغة العصر: التطعيم للمعركة.. وذلك بخلق جو تتوفر فيه كل مظاهر المعركة وشدتها، حتى يألف المحارب هذا الجو. وكأن الأقدار قد ساقت للعرب هذه المعارك بينهم حتى يتهيأوا على الرغم منهم لفتوحاتهم العظمى بعد ذلك فى مشارق الأرض ومغاربها.

* * *

لقد حول خالد جو الاقفار والقتام الذى ساد عقب المعركة إلى نشوة من السرور والفرح ترفه عن أناس وترفىء بين أناس، وكأن خالدا رأى فى عنف المعارك ما يطبع النفوس على نمط الخلق الغليظ. فأراد ن يعمل حدثا

يردها إلى الحياة الطبيعيــة ، الحياة العادية ، البناء والتكاثر فى حياة المتاع الحلال سنة وشرعة ليقدم من عساه أن يتردد ، ويمضى من لعله أن يحجم ، فدعا مجاعة بن مرارة وقال له :

ـ زوجنى ابنتك .

ـ مهلا . إنك قاطع ظهرى وظهرك عند صاحبك .

وهو يعنى بذلك أن الخليفة قد يأخذ عليه أمر هذا الزواج ،كما ثار عليه فريق عند زواجه بليلى ابنة المنهال ، ولكن خالدا نظر إلى الرجل وقال بلهجة الذى لا يبالى ما دام يلبى نداء قلبه :

ـ أيها الرجل زوجنى . وبنى بها واتخـــذ لها فسطاطاً إلى جانب فسطاط ليلى .

وعلم أبو بكر بما كان فغضب غضباً ينم عنــه خطابه الموجه إلى خالد : « لعمرى يا ابن أم خالد ، إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد » .

ولكن خالدا عزا هذه الثورة إلى عمر ، ثم مرت هذه الحادثة كما مر غيرها لأن الدولة الفتية فى حاجة إلى عبقرية خالد حين يتم العرب تطهير أرض الأديان ومهبط الروح من الجاهلية الناشبة فيها .

إلى العراق

المثنى بن حارثة الشيبانى ممن كانوا يمثلون فى المسلمين روح المقاومة ضد المرتدين فى البحرين ، وقد تجمع حوله جحافل من أشتات المسلمين حارب بهم متنقلا من مكان إلى مكان سالكا طريقاً على ساحل الخليج الفارسى بلغ به حدود العراق ، وقد لجأت فلول المنهزمين من أعدائه إلى العراق ، فمضى يريد القضاء عليهم موغلا وراء حدود العراق ، وترامت الأخبار إلى الصديق فى المدينة وتتابعت أنباء انتصاراته ، وبلغ الصديق أنه أخضع القطيف وسار إلى وادى الفرات ، ورأى الصديق ـ خشـــية أن يصطدم الرجل بخط من خطوط المقاومة الرئيسية ـ أن يمد الرجل ، ويتبنى المسلمون رسميا هذه الحملة الحرة ، مادام الرجل ومعه الآلاف الثمانية يعملون لحساب الدولة ويقاتلون من أجل توحيد الله وتوحيد الكلمة ، لذلك أمر خالدا أن يستأنف مسيره من اليمامة حيث هو إلى الحيرة ، وأمر عياض بن غنم أن يؤدب دومة الجندل ويقر الأمور فيها ، ثم يمضى شرقا إلى الحيرة فإن بلغها قبل خالد كانت القيادة له وخالد من أعوانه ، وإن بلغها خالد قبله كان الأمر لخالد وعياض من من أعوانه ، وتتابعت أوامر الخليفة إلى خالد وجنده : « فقد أمرت خالد ابن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتى أمرى إليه ، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته وعظمت فى الخير رغبته ، فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى » وجاءه

كتاب آخر يأمره بألا يقاتل بمن يمضى معه متثاقلا متكارهاً : « استنفر من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ولا تستفتح بمتكاره » وجاءه كتاب آخر يأمره إذا دخل العراق أن يبدأ بالأبُـلّة على ساحل الخليج العربى (وهو ميناء تسير منه السفن إلى الهند ، وتصل إليه ومنها ومنه تنهال السلع على أسواق العراق وفارس) وأكثر المؤرخين يروون أن أول غزاة كانت غزاة الحفير ، ولعل الذى كان أن خالداً تظاهر بمغادرة سويد ابن قطبة إلى المثنى بن حارثة ، ولم يلبث أن عاد إليه فى جوف الليل بعد أن أطمع الفرس فى سويد قلة عدد رجاله فى معركة الأبلة ، وهزم خالد جند الفرس ولم يستقر فتح المسلمين للأبلة استقراراً يمكنهم من إدارة شئونها إذ اكتفى خالد بتحطيم حاميتها وجعلها ترسل إلى كسرى تستنجد به وفى هذا من التفريق لقوة الفرس والتشتيت لها مايجعل قوات خالد على قلتها أحسن حالا وأقدر على أن تعمل فى حرية وتتخير مكان الهجوم فى خفة ويسر .

* * *

وعن لخالد أن يمضى إلى المثنى عند تخوم العراق حيث بلغت هذه القوات جميعاً ثمانية عشر ألفاً قسمها إلى ثلاثة ألوية ، وجه كل لواء منها إلى طريق على أن يلتقى الجميع بالحفير وجعل على الفرقة الأولى المثنى بن حارثة وسار قبله بيومين ، وأمر على الثانية عدى بن حاتم وسار قبله بيوم ، ثم سار خالد بعد أن بعث إلى هرمز قائد الفرس بكتاب « أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئت بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ولم يعمل هذا الكتاب فى نفس هرمز

إلا كما يعمل مذيع يلقى على مسامعه نبأ تحرك المسلمين ، فحشد جيشه ، وحزر أن يكون خالد قد سار إلى الكواظم فسار إليها ، فلما علم أن خصمه بالحفير أسرع إليها ، ونزل على مائها قبل وصول خالد الذى لم يدرك مكاناً صالحاً ينزل إليه بعد أن احتل هرمز عيون الماء ومجاريها ، وكأن أصحابه قد رأوا أن النزول على غير ماء مخاطرة ، ورضى بأدنى المقامين إلى الهزيمة ، ولذا فقد اضطر خالد إلى أن يساجل قواده ورجاله ، وأن يحيل بعبقريته دواعى الهزيمة إلى دوافع الحفز والنصر قائلا : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين » ولكن السماء وقد أمطرتهم غيثاً فقد كفتهم الشقة عليهم واصطفت جيوش الفرس ، ورأى هرمز ألا يطيل أمد المعركة ، وليختصر طريق النصر ، أو فليسلك طريق الخيانة والغدر ، فخرج يريد مبارزة خالد ، وكان قد رتب جماعة من الرجال الجلاد يخرجون على خالد فيدقون عنقه ؛ ولبى خالد نداء هرمز ، وترجل عن جواده ثم مشى نحوه حتى التقيا فاختلفا ضربتين ، وقبل أن تتحرك عصابة الغدر الفارسية كان هرمز بين يدى خالد كالشاة يصلح الجزار لها مكان ذبحها ، وشد هؤلاء يريدون قتل خالد واستنقاذ هرمز .

وهنا ينبرى لهم القعقاع بن عمرو التميمى ، وكان أبو بكر قد أرسله وحده بلا جند مدداً لخالد حين طلب المدد قبل هذه المعركة ، وكان ذلك من الخليفة محل تساؤل ، ودهش من أصحابه حتى قال لهم : « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » وصدقت فراسة الخليفة ، إذ ما كاد يخرج القعقاع على القوم حتى حمل المسلمون من ورائه على أعدائهم بعد أن كان هرمز فى يد خالد

جثة هامدة ، يخلع عن رأسه قلنسوة الشرف ، وكأنه يقول للدنيا : هذه أولى قلانس ننزعها من فوق الهام ونركلها بالأقدام ، وقلنسوة من قلانس الطبقات المتألهة ننزعها ، كمدينة من مدائن الظلم نفتحها .

وانهزم الفرس وأمر خالد المثنى أن يتعقبهم ، فلم يبرح يتابعهم حتى بلغوا المدائن . وقد سميت هذه المعركة وقعة السلاسل ، لما قيل من أن الفرس قرنوا فريقاً من رجالهم - ولعلهم من المسجونين على طريقة القدماء فى استخدام الأسرى والمجرمين فى القتال - بالسلاسل حتى لا يفروا .

وأراد خالد ألا يضيع ثمرات النصر السابق فى الأبلة فأوفد مقرن المزنى ليجمع سبيها وما لها قبل أن يذهب نهباً للفوضويين الذين يشتغلون خلف خطوط المقاتلة من سكان الديار ، ثم أرسل ما فاض من توزيع الأنفال على جنده إلى المدينة ، وفى قائمة الأسلاب قلنسوة هرمز وفيل عظيم - ولعله فى اختياره لهذين الشيئين البارزين فى الغنائم وإيثاره بإرسالها إلى المدينة يريد أن يرمز إلى مبلغ انتصاره وقيمته ، وإلى أن ما كان عجيباً غريباً على العرب - سيما سكان الحجاز - من متاع الفرس ومطايا الدهاقين وما اتشحوا به من لباس غير شريف ، صار كل أولئك نفلا مقسوما ، وغنما بارداً ، لا يحميه من استرداد العرب له رعب من الفرس مقيم ولا عقاب من الأكاسرة أليم ، ولكن فيل فارس كان أروع وأبقى على الرعب والفزع من امبراطورية فارس ، فلقد سار الفيل فى المدينة فهابته العجائز ، ودهش لمنظره الشيوخ ، وفزع لمرآه الأطفال ، وقال البسطاء من بدو وحاضرة : « عجباً أمن خلق الله هذا ؟ » وقال السذج والبلهاء « هذا من الجن » وقال أبو بكر ردوه إلى بلاده فهو لهم

آلف ، وهم به آنس ، وكانت موقعة السلاسل سنة ١٢ هـ — ٦٣٣ م » وتسمى غزاة كاظمة نسبة إلى أقرب قرية إليها .

ولكن هل كانت هذه المعركة فاصلة بين الفرس والعرب ؟ . . كلا . فلقد ظل المثنى بن حارثة يطارد الفُلّال المهزومة حتى التقت هذه القوات بنجدة كان قد أرسلها أردشير الملك بقيادة قارن بن قريانس أحد عظماء دولته الذين تم شرفهم إلى ثغور العراق حتى لا يتكأكأ عليهم خالد وجنوده ، فضمهم قارن إليه ، ثم عسكر بهم فى المذار على ضفاف قناة بين دجلة والفرات ، وعرف المثنى أمر مطارديه ، وأنهم وقد عظم شأنهم بقوة قارن ابن قريانس ، ورأى ألا قبل له بلقائهم وعلم خالد بما لاقى المثنى وما سوف يعترضه إذا التحم مع هذا الجيش ، خصوصاً وقد استنجد المثنى بابن الوليد مما يدل على احتمال اصطدام الفريقين ، وأخوف ما يخافه خالد أن يلقى المثنى عدوه فيفت ذلك فى عضد العرب فتتابع الهزائم ، وتكون هزيمة المثنى الثقاب الذى يشعل النار فى صرح الانتصار العربى فى ديار الفرس ، ومن هنا رأينا خالداً يشرع عاجلا إلى المذار ، وكأنه كان مع قارن - الذى أتم عدته وهيأ للهجوم على المثنى أهبته - على ميعاد ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى كانت صناديد الفرس تذبح على مرآى من عامتهم وحتى كانوا بين الكماشة العربية ، أحد طرفيها المثنى والآخر خالد ، وغنم ما غنم ، وكان من غنائمه وأسراه رجل فارسى قدر له أن ينجب أكبر فقيه ورع فى الصدر الأول من الإسلام الحسن البصرى فأبوه هو أسير خالد فى معركة المذار .

ورأى الفرس ما أصابهم من ذل الإسار ، وعار الفرار ، وكسر الشوكة ،

وكأنهم عرفوا أخيراً أن فى العرب قوة كامنة تكتشف نفسها إذا وجدت قيادة تسامتها فى قوتها وتعرف كيف توجهها الوجهة المثلى ، وكان ذلك خفيا على الفرس من قبل ، ومن ثم أرادوا أن يكسروا شوكة العرب بالعرب ، فاستنهضوا بنى بكر بن وائل من عرب العراق ، وجمعوا من استطاعوا جمعه من العرب عاربة ومستعربة ، ثم ساروا إلى حيث يلتقى بهم خالد فى الولجة وهم فى قيادة (أندرزغر) ، وكانت قوة الفرس أضخم وأكثر فى عديدها وحديدها من قوة العرب المسلمين ، وهنا يكون للعبقرية أثرها الفعال فى ترجيح إحدى الكفتين .

أعد خالد سريتين من الرجال وجعلهما كمينين خلف خطوط العدو يباغتانه إذا التحم مع المسلمين وصدق فى القتال ، وآية ذلك أن يكون متجها أمامه ذاهلا عما وراءه ، وطال أمد القتال واستحر القتـــل والقتال بين الفريقين واستبطأ الكمينان تنفيذ مارسم لهم ابن الوليد ، وفى لحظة من لحظات التكافؤ بين الفريقين وأحدهما ترجحه أقل نجدة تناوش عدوه من هنا أو هناك ا كتنف الكمينان العدو من كل جانب وأطبق عليهم خالد من الأمام بقواته الرئيسية . حتى تبددت قوة العدو وفر (اندرزغر) إلى البادية ومات عطشاً ، ويبدأ بين العرب المسلمين و بين العرب المتمجسة من الخاضعين لسيادة الفرس والموتورين لقتلى الولجة الترات والسخائم ، وتنطوى نفوس الآخرين على الإحن والاضطغان فيراسلون الفرس يطلبون العون حتى يأخذوا بالثأر من أبناء عمومتهم ، و يبعثون إلى أردشير الملك ملحين .

أسد قريشى يعدو على الأسد :

(مدائن كسرى) كما اشتهرت بين العرب لم تكن تطلق على ما سوى محلتين على الشاطىء الشرقى لدجلة يقع موضعهما الآن قبالة بغداد فيما يشبه عنق الزجاجة فى طرف الجزيرة ، وبينها وبين بغداد حوالى الثلاثين ميلا فى جنوبيها . والمحلتان قد بنيتا على التعاقب الشمالية قبل عهد الساسانيين على الأرجح ، ويقع بها قدماً (القصر الأبيض) الذى بناه أوائلهم وقد تلاشت هذه الآثار منذ هدمها الخليفة العباسى المكتفى بالله سنة ٢٩٠ هـ ليبنى بأنقاض قصرها قصره المسمى « قصر التاج » . وقد التبس على بعض المؤرخين أمر (القصر الأبيض) أو (أبيض المدائن) بإيوان كسرى فظنوه هو لعفاء أثره ، بيد أن إيوان كسرى الذى كان قائماً هو المحلة الجنوبية ، وهى التى لا تزال بقاياه قائمة بها إلى اليوم شاهدة على عظمة البانى من فخامة البناء ، وكان لا يزال إلى عهد العباسيين حافظا لرونقه وبهائه ، ولم تؤثر فيه يد البلى كثيراً ، فجاء أبو جعفر المنصور وأراد أن يأخذ من آجره لبناء بغداد مع بعد الشقة وعظيم النفقة فنصحه وزيره خالد بن برمك قائلا :

ـ اتركه ماثلا يستدل به على مقدار آبائك الذين سلبوا ملك أهله .

ورأى الخليفة فى هذا من خالد البرمكى جنوحا إلى العنجهية الفارسية المستترة ، فاتهمه فى النصيحة ، وشرع فى هدمه فصب عليه الخل وحماه بالنار ، واتخذ له أقوى المعاول حتى أدركه العجز ، وعاد يستشير خالداً مرة أخرى فأشار عليه : « ألا يتركه حتى يأتى عليه ، ويتم هدمه ، لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم ما بنته سلاطين العجم » .

ولكن المنصور مع ذلك كف عن هدمه وترك فيه بقية يتمثل فيها الطاق ، أى بهو الإيوان بعد زوال سقفه وحوله جانبان يمتدان زهاء مائة متر .

ويقول ياقوت الحموى : « رأيته وقد بقى منه الطاق والإيوان حسب » وياقوت فى القرن السابع للهجرة ، وقد انقض الجناح الأيسر فى عام ١٨٨٨م ويظهر أن ارتفاعه كان يبلغ ٢٥ متراً لاكتنافه ثلاث طبقات . وإيوان كسرى هذا قد بناه سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) وقد زارت بعثة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ هذا الأثر فوجدت الطاق والجانب الأيسر وأنقاض ما تهدم من البناء العظيم .

وقد أردت بهذا الاستطراد أن أوضح الفرق بين أبيض المدائن أو القصر الأبيض وبين إيوان كسرى ، والفضل فى ذلك يرجع إلى المحقق الفاضل الأستاذ محمود مصطفى ، وقد فرق البحترى فى سينيته بين أبيض المدائن وبين الجرماز فإيوان كسرى وهى التى يقول فيها :

حضرت رحلى الهموم فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عنسى
مغلق بابه على جبل القبـ ـق إلى دارتى خلاط ومكس

ثم يصف الجرماز :

فكأن الجرماز من عدم الأنـ ـس وإخلاله بنية رمس

ثم يصف الإيوان :

وكأن الإيوان من عجب الصنعـ ـة جوب فى جنب أرعن جلس

فى هذا الإيوان العظيم كان كسرى يجلس مع ندمائه لم يعكر صفو حياته سوى هذا الجحفل من المكافحين المحررين للإنسانية باستخلاصها من براثن الطبقات الأرستقراطية من مرازبة وأكاسرة ، وعلوج وقياصرة ، وأخذت الأنباء تترى عليه من رسله وعماله عن هزائم رجاله وأعوانه ، وانتصارات خالد بن الوليد عليهم ، وعن له أن يثب وثبة يغسل بها معرة الهزائم المتتابعة المتلاحقة ، فجهز جيشاً كثيفاً يقوده أندرزغر والذى كان مصيره الموت ظمأ كما ذكرنا .

وقد أبى المستضعفون الذين سلبهم الفرس سيادتهم وفرضوا عليهم الإصر والعبودية ، إلا أن يرتموا فى أحضان العدو الغاصب ، ويكونوا عوناً له على إخوتهم فى الأرومة والجلدة ، وأخيراً تجمعوا بأُلَّيْس مع الفرس يقودهم جميعاً (جابان) ولبثوا ينتظرون قائداً آخر هو (جاذويه) فلم يمهلهم خالد ريثما يتمتعون بلقائه وأجناده ، وخيله وخيلائه ، وإنهم لفى هدأة النهار وقد هيأوا لأنفسهم الطعام ، إذا بخالد يهجم عليهم هجمات متعاقبة ، وكرات متتابعة ثم صدق فى الهجوم وصدقوا فى الدفاع ، وكأن انتظارهم لجازويه ونجدته قد ضاعف أملهم فى النجاة ، ورجاءهم فى النصر ، ولكن أنى لهم بالحياة حتى يظفروا بالنجاة ، فلقد استحر القتل فيهم حتى جلوا عن مواضعهم ، ومن ثم وقعت الهزيمة الماحقة .

وانتهت هذه الوقعة بما عز جيشه وجعل النصر الذى أحرزه فى معاركه السابقة يرفع فى روح رجاله المعنوية ويسمو بها ، ولخالد وسائله الفذة فى

السمو برجاله والدفع بهم إلى أن يخوضوا معامع الموت مستميتين ، وله شخصيته الفريدة التى تحفز الجندى على الانقياد والطاعة والإعجاب ، وهو الذى طالما أثنى على رجاله ، وحمد لهم جهادهم ، وأشاد بعلو روحهم ، ولطالما اعتز بهم واعتد بقوتهم ، وفاخر بهم مرازبة الفرس وقادتهم ، ومن هنا كانوا من خالد فى السويداء وهو منهم تقديراً وإعجاباً وتفانياً ، وحبا له بما لا نظير له كثيراً فى دنيا القادة والجنود ، والشرف والبسالة والوفاء .

وها نحن أولاء نراه ينهض من معركة أليس ، ثم يدخل (أمغشيا) دون إراقة دماء ، إذ فر أهلها قبل أن يدخلها ، وكيف لا يفرون وهو الذى أقسم أمام الله عن أهل أليس : « اللهم إن منحتنا أكتافهم لك على ألا استبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » وقد بر فأجرى الماء على دمائهم فجرى دما عبيطا ، وقد كانت النواعير والأرحاء التى تطحن أقوات الجند يتدفق الماء من تحتها محمراً قانيا ، ومن يومئذ سمى « نهر الدم » ولما كان أهل امغيشيا قد اشتركوا فى معارك أليس فإنه قد أمر جنده أن يهدموا هذا البلد ويغنموا ما كان فيه .

وعلم الصديق بما كان من أمر خالد فراح يذيع فى المدينة ما إن سمعته والدات يثرب لتمنين أن ينفضن أرحامهن ، أن لم تلد من مثـل خالد بطلا آخر :

« يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ . . »

حقا لقد استنطقت عبقرية خالد أفذاذ التاريخ فهتفوا له ، ومن أعظم من محمد رسول الله ؟ ألم يهتف بخالد أنه سيف من سيوف الله ، ثم خليفته على العالم وصدّيقه لقد قالها « هذا أسدكم يعدو على الأسد » .

معذرة يا سيف الله ويا أسد العرب ، لقد مجد أحفاد العرب اليوم ثعالب الغرب ، وفقهوا سيرهم وجهلوك ، وأنت الذى قد بنيت لهم مجداً بحد حسامك ، وقد كان مجدك إنسانيا فى سبيل الحرية ، فكان خالدا باقيا لأنك لم تدخر منه لنفسك ملكا يورث ، وها هو ذا ذكرك يعلو على مر الأجيال ولكن على ألسنة الأحرار من أمتك ، والأوفياء الصادقين من الناس .

ولنعد إليك فى جندك وقد استولوا على سفن أمغشيا يريدون الحيرة . ولم تسبح طويلا حتى ترقرق الماء من قاعها وارتطمت ثم مالت على جوانبها وعلم خالد أن (آزاذبه) حاكم الحيرة قد سد القناطر وحول مجرى الفرات حتى ييبس النهر فيما بين أمغيشيا والحيرة فغضب عند ذاك غضبا شديداً وخرج فى فرقة من جنده حتى لقى ابن آزاذبه على فم العقيق فحمل عليه ، وعلم حاكم الحيرة أن ابنه قد خذل فى مأمنه ، وأن خالدا قد عسكر على الماء يحرس مجراه ، وأن جنوده قد امتطوا السفن وموعدهم معه الحيرة ، وأسقط فى يد الرجل وعلم ألا مفر له إن بقى ، وها هى روحه المحطمة وقلبه الكسير يحفزانه على الهروب من وجه خالد ! ! . . أجل فليهرب فماذا بقى له من العزة يدافع عنها بعد أن قتل ولده ، ونعا إليه الناعون موت الملك أردشير . وعبر الرجل الفرات إلى غير رجعة .

وكان خالد قد عسكر بين الخورنق والنجف ، وقد استولى على قصر الخورنق العتيد ، وبعد أن زاره الجنود وشاهدوا عجائبه زحفوا إلى الحيرة فحاصروها حتى ضيقوا الحصار على أهلها ، وخرج كبراؤها وزعماؤها ، وهم أمراء الإقطاع من العرب عملاء الفرس الذين قسموا الشعب بينهم واستعبدوه واستذلوه فى سبيل ترفهم وسرفهم وبذخهم ، وخلا خالد بكل شريف فى قصره على حدة ، وأخذ يلومهم :

- ويحكم ! ! ما أنتم ؟ ؟ . . أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ . . أو عجم ؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف ؟ .

- بل عرب عاربة وأخرى متعربة .

- لو كنتم كما تزعمون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا .

- ليدلك على ما نقول أن ليس لنا لسان سوى العربية .

- اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا ولكم ما لنا وعليكم ما علينا - إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم - أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة . فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .

- بل نعطيك الجزية .

- « تباً لكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه ، واستدل الأعجمى » وأخيراً عقد معهم عهداً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابنى عدى وعمرو بن

عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسسهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة ، وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول فى السنة الثانية عشرة من الهجرة » .

الكفاح الشعبى فى لغة خالد

لو أن أميراً قد رفعته أرستقراطيته الموروثة إلى أن يأمر فيطاع ، ويقود الجحفل اللجب فينقاد لما سمعناه يعتد بلغة الشعب ، ويحترم إرادة الشعب ، ويجيب رغبات الشعب إلا مضطراً أو مجبراً ، أو خليقاً بأن يكون الشعب هو الذى يرفعه إلى حيث يعمل له ، وخالد الذى وصلت به عبقريته وكفاءته أن يكون قائد الإسلام الأول فى ذلك الحين لم ينس الشعب . . .

فها هو ذا يذكر دائماً رجاله الذين ينتصر بهم فيقول لأهل الحيرة : « جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ولم ينس أن يعامل الفلاحين فى البلاد التى فتحها من معركة كاظمة إلى الحيرة برفق وأن يخلصهم من جور أمراء الإقطاع ، ثم ها هو ذا لم ينس أن يتحقق من رضى أهل الحيرة وتفويضهم لنقبائها فى معاهدته حتى ينص بذلك فى العهد « رضى بذلك أهل الحيرة » .

ويتجلى شعور خالد بمسئولية الزعماء والنقباء كخادمين للشعب يأتمرون بأمره فى قوله : « وأمروهم به » وسنرى من هذه اللفتات الخالدية كثيراً تدل على ما ارتكز فى قلوب منشئى الحضارة العربية ، واستقر فى فطرهم من العناية بالطبقات المكافحة والاهتمام بإرادتها ، ولا غرو فدينهم منذ قام ينادى به منقذ الإنسانية محمد (ص) لم يهرع لنصرته وينضو تحت رايته ويحتمل التضحيات الباهظة من رجال الرعيل الأول إلا الضعفاء والفقراء والأرقاء

والمهاجرون وأبناء السبيل ، فهم الذين احتملوا الصدمات الأولى ، وتلقوا أولى الضربات القواصم من الطبقات العليا من سادة قريش والطائف وأشراف القريتين ، فما لانت قناة نفوسهم الماضية ، ولا خارت عزائمهم الواثبة ، ولا خانتهم قواهم الحداد ، وإذا كان خالد وأبو بكر وعمر وعلى ومعاوية بل ومحمد(ص) نفسه من أبناء الطبقة التى تشعر بأن لها شرفا على الناس فإن هؤلاء الأفذاذ لم يكونوا فى خلال دعوتهم إلا نصرة للضعيف وغوثاً للملهوف ، وعوناً على نوائب الحق ، حتى لقد خاصم أحدهم ملكا عظيما من أجل لطمة قضى بأن يلطمها من أعرابى جلف قصاصا وعقابا حتى دهش الملك فقال : « أليس فى دينكم فرق بين السوقة والملوك » فأجابه عمر : « كلا . . لقد ساوى الإسلام بينكما[1] » وعمر هو الذى صاح بها مجلجلة فى دنيا الإقطاع والرقيق « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »

وقد جعل الإسلام من أشراط الساعة أن يحكم الرجل قوما وهم له كارهون وأشراط الساعة هى آيات خراب الدنيا وزوال حضاراتها ، ومن هنا تعلم أن فى زوال الديمقراطية الحقة ما يقوض أركان المجتمع ، ويمحو عناصر العمران ويقضى على ثمار العقل البشرى ، وعلى ما اكتسبته الإنسانية من كدها الطويل منذ براها فاطرها ، فليت شعرى متى يعلم أبناء هذه الأجيال روح المبادىء الإسلامية كما عرفها أسلافهم ، وكما طبقها أمثال خالد بن الوليد وكثيراً ما نجد القائد إذا اشتهر بالانتصارات ، وارتفع شأنه بين الناس بعداً فى الصيت ، ورعبا فى قلوب الأعداء زاد اعتداده بنفسه ، وثقته

(١) هذا الملك هو جبله بن الأيهم ملك غسان (لبنان اليوم)

بعبقريته ، فإذا عن له أن يعتد برجاله ، ويعترف بشأنهم فى بطولته لم يعترف بهم إلا بينه وبينهم فى دهاء وسياسة ليؤلف القلوب ويقوى معنويتهم ، بيد أننا بعد الاستقراء الدقيق لا نجد جملة واحدة تؤثر عن خالد فيها مباهاة بنفسه أو نخار بيأسه . وإنما الذى لهجت به كتبه وأقواله هو اعتداده برجاله ، وثقته بكتائبه ، سواء فى ذلك بينه وبين زملائه من قادة المسلمين أو مع أعدائه من قادة الأعاجم .

أرسل إليه عياض بن غنم يستنجده ، وقد أوشك أن يبيد أمام أعدائه فى دومة الجندل . فبعث إليه خالد يقول :

من خالد إلى عياض ، إياك أريد :

لبّث قليلا تأتك الجلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب

وهذا لعمر الحق كتاب أروع من الكتائب ، وكتائبه أروع الكتائب وإن جيشا يسبّح قائده به حمداً وثناء فى كل موطن ومناسبة فخوراً تياها معجبا مباهيا ، لجدير بخالد بن الوليد ، ولست أنسى أن أسجل فى مقام الكفاح الشعبي فى لغة خالد أن أسوق ما كتبه خالد إلى صلوبا بن نسطوبا صاحب قس الناطف ، بعد أن صالحه وكتب معه عهداً على الجزية والمنعة لقاء عشرة آلاف درهم فى العام ، القوى على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله وجه فى هذا الكتاب إلى صلوبا ما يأتى :

« وإنك قد نقبت على قومك ، وإن قومك قد رضوا بك ، وقد قبلت ومن معى من المسلمين » .

إنه هكذا أبداً يعرف كيف يملأ الأسماع بشعائر الديمقراطية الحقة ، ومن هنا كان جديراً بأن يملأ الجيش الدنيا باسم قائده فوزاً مبينا ونصراً عزيزاً ، وليت شعرى ماذا خسر خالد حين ملأ بجيشه الأسماع . ونعته بأسمى النعوت وأشرف الأوصاف ؟ . . لم يخسر شيئاً ، وإنما كان كسبه للمحامد والمجد أعظم من كسبه فى المعامع والمعارك ، ألا حيا الله جنود خالد المجهولين ، وبارك أجداثهم ، ومجد أرواحهم فى علّيين .

خاطف القواد والعيون

عرفت أن أبا بكر أرسل خالداً وعياض بن غنم ، ووكل إلى كل واحد منهما طريقاً يفتح البلاد التى عليه حتى يبلغ الحيرة ، والذى يبلغها منهما قبل الآخر كانت القيادة له ، وعرفت ما أحرز خالد إلى الآن من انتصارات حتى فتح الحيرة . فماذا عرفت من أمر عياض بن غنم ، رجعنا ببصرنا إلى الوراء جنوباً فى قلب البلاد العربية فإذا به تنوشه رماح القبائل وتتواثب عليه ، فتقطع عليه طريقه من كل مكان ، وأخيراً يبعث إلى خالد باستغاثته التى رد عليها خالد بما سقناه فى الفصل السابق ، ثم ينهض إليه بعد أن عين القعقاع بن عمرو أميراً نائباً له على الحيرة ، حتى إذا بلغ الأنبار (١) وجد أهلها قد امتنعوا بحصونهم ، وأشرفوا من أعاليها على المهاجمين ، وبعد مناوشات وترامياً بالنبال ، عرف خالد منها مبلغ علم القوم بالحرب ، فقال لرجاله من الجنود :

– إنى أرى قوما لا علم لهم بالحرب ، فارشقوا فى عيونهم ولا تحرّوا سواها .

وكان من أثر هذه الطريقة المخيفة أن العدو أصيب بأفدح المصائب بفقء ألف عين فى يوم واحد .

---

(١) الأنبار غربى بغداد الحاضرة بنحو عشرة فراسخ وتقع على ساحل الفرات .

ثم تعجل الهجوم عليهم وهم على هذه الحال السيئة ، فعمد إلى نحر الإبل الهزيلة وأفعم بها الخندق الذى احتفره الأعداء حول مدينتهم ، ثم جعل من أشلائها جسراً عبره ورجاله ، فإذا بهم فى سكك المدينة وفى قلبها ، وهنا لجأ العدو إلى الحصون ، وقد يئس من أن يرد هذا القائد وجيشه وكيده ، وكان العدو جله من الفرس ، فراسل قائده خالدا على الصلح ، وكان أعظم مايريده أن ينجو بنفسه ورجاله إلى بلادهم ، ولم يكن لخالد مصلحة فى التضييق عليهم . بل إن فى جلائهم على هذه الصورة المزرية لعبرة للمستعمرين من كل دخيل ثقيل ، وواغل ظالم حقير ، ولم ينس خالد أن هؤلاء الذين استعبدوا العرب واستذلوهم ، إنما أوقروا أحمالهم بدماء المحكومين ، وأثقلوا جيوبهم بأموال المواطنين ، فاشترط عليهم ألا يحملوا معهم أموالا ، ولا يبلغوا من الوطن متاعا ، وتلك صورة رائعة من صور التحرير الشعبى تدلنا على ما كان العرب يحملونه من أغراض ثورية تحريرية ، فلم تكن أغراضهم تحرير الفكر من الموروثات القديمة البالية والمعتقدات الخرافية فحسب وإنما كانت أيضا لتحرير الأرض من الغاصبين ، وتحرير بلاد العروبة من الدخلاء الواغلين ، وتحرير الثروة القومية من الجشعين والناهبين .

وحسبك لتعلم مبلغ اتفاق المستعمرين فى كل وقت وحين على وسائل معينة فى إضعاف كلمة الأمم المغلوبة وتحقيرها والغض من شأنها أن تعلم أن خالداً استخلف الزبرقان بن بدر على الأنبار وسار إلى عين التمر (١) . وكان عليها مهران بن بهرام أميرا ، ومعه أجناد من الفرس وأحلاف من العرب

---

(١) عين التمر قريبة من الأنبار وغربى الكوفه تقع بين عراق العرب وبادية الشام .

وفى صفوفه جحافل من قبائل نمر وإياد وغيرهم ، وعليهم عَقّة بن أبى عقة وهو الذى قال لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدا . وأقره مهران على هذا وتركه يقابل خالدا ويقاتله بمن معه من العرب ، وكان أن عتب على مهران بعض رجاله ممن أخذتهم عصبية الفرس ، وعنجهية العنصرية — والعنصرية المنحرفه المتعجرفة هى أولى مقوضات الحضارة فى كل أدوار التاريخ ، وما نبتت العنصرية الباغية فى قوم إلا أفعمت قلوبهم بالسخائم ، وألهبت مشاعرهم بالإحن والأضغان ، وبعدوا كل البعد عن الشعور الإنسانى الكامل — عتبوا عليه أن جعل الفرس فى مصاف العرب ، والعرب فى مستوى الفرس من حيث الاعتراف بمقدرتهم على قتال نظرائهم من بنى جلدتهم فاعتذر إليهم قائلا :

— دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم — يعنى بذلك الفريقين من العرب — إنه قد جاءكم من قتل ملوككم ، وفل حدكم فاتقيته بهم ، فإن كانت الدائرة على خالد فالنتيجة لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغكم خالد ورجاله حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون .

وصفق له قومه — طبعاً — وعلموا أنه أصاب فيما أمضى ، ورضى ذلك العقة أن تكون صدور العرب سوراً يحمى آلهة الفرس ، وطغاة الأعاجم ، ونزل إلى خالد يصده عن طريق المدينة ، ورأى خالد رجلا عربياً خانته ذاكرته القومية بل خانته نزعة الحرية ورأى أنه أحقر من أن يضيع وقته فى رسم الخطط والتفكير فى هزيمته فقال لمجنبتيه .

— اكفونا ما معه فإنى حامل عليه بنفسى . وهنا أخذ كل من رجال المجنبتين فى حركات خفيفة يشغلون رجال عقـــة حين انقض خالد عليه

واحتضنه ثم جذبه إليه وطار به إلى معسكره ووضعه فى أسره ، وكان هذا حداً فاصلا بين القوم ، فلقد علموا أن خالداً قد اختطف قائدهم من بينهم وأنهم بغير قيادة يحاربون ، ورأى مهران ماقد أذهله هذه فُلاّل من جيوش العرب تركض كالأنعام الواجفة تريد أن تأوى إلى الحصن لتنجو من وميض السيوف ، فما كان منه إلا أن ركن هو وقومه إلى الفرار وتركوا الحصون تؤوى كل هزيم كليم ، ولم يلبثوا أن نزلوا على حكمه وعلموا أنهم خانوا العروبة حين قطعوا رحمهم ظلما ، وخانوا الحرية حين ارتضوا سيادة الفرس على بلادهم ، ونصبت محكمة خالد فحكمت على هؤلاء المجرمين أمثال عقة وعمرو بن الصفق بالقتل ، وترك خالد مهران وقومه يهيمون على وجوههم يطلبون النجاة فى بلاد النيام ، حتى تدق أبوابهم أيدى الموقظين ، وأسر خالد من هذه الحصون غلماناً كانوا يتعلمون ، نبغ منهم بعد ذلك سيرين أبو محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الأندلس .

ثم استأنف خالد سيره بعد أن استخلف عويم بن كاهل من بنى أسلم على عين التمر يريد دومة(١) الجندل ، حيث عياض بن غنم تحدق به أخطار الهزيمة والاندحار ، وكان على دومة الجندل ملكها (أكيدر بن عبد الملك) الذى كان أسير خالد(٢) وصالحه على فتح دومة ، وأخذ غنائم أتينا على وصفها وحصرها . وهرعت قبائل العرب المتنصرة فى بادية الشام من كلب وغسان

---

(١) كان خالد قد سئم الانتظار لمجىء ابن غنم وكان يقول «لولا أمر الخليفة الذى عهد الى لم أتنقذ عياضاً وما كان دون فتح فارس شىء إنها لسنة كسنة النساء» وهو يعنى السنة التى انتظرها فى الحيرة لم يروض فيها عبقريته على حد تعبير الدكتور هيكل ، ومن هنا أمر أبو بكر أن يتوجه ابن الوليد إلى دومة والمسافة بين البلدين أعنى بين عين التمر ودومة الجندل نحو ثلاث مائة ميل .

(٢) راجع فصل (افتراس الصائد) .

وتنوخ والضجاعم وغيرهم ، يريدون نجدة دومة الجندل ، وكان يقود الجميع أكيدر بن عبد الملك والجودى بن ربيعة ، ولكن أكيدر الذى عرف مرارة خالد فى مذاق الخصومة ، وعرف جرأته كبطل شديد المراس والمِرّة صاح فى قومه :

ـ أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ولا أجدّ فى حرب ولا يرى وجهَ خالد قومٌ أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم »

وأبى عليه القوم أن ينزلوا على رغبته ويستفيدوا من خُبره وخبرته ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد . وتركهم وذهب عنهم ، وكأنه هائم على وجهه يريد النجاة من الفريقين ، والله أعلم أى الفريقين قتله فى الطريق ، وما كان أكيدر يستحق سوى القتل ، إذ أنه كان قد عاهد خالداً من قبل فى غزاة تبوك ، ثم نكث بعهده وألب العرب على عياض بن غنم وما زال كذلك معلنا حرباً على المسلمين حتى علم أن يد خالد التى اختطفته من قبل هى التى امتدت اليوم نجدة لعياض ، ونجاة لمن أوشكوا أن يكونوا من الهالكين ، وهنا أفزعته الذكريات ، ولاحقه شبح الأسر فعمد إلى الفرار ، بعد أن وهن أمام حلفائه الذين جمعهم من قبل على حرب المسلمين ، فكان مستحقاً للقتل ، إنْ بيد حليف الأمس (خالد) أو حلفاء اليوم ، فهو الذى قتل نفسه وبيده لا بيد عمرو .

وبدت طلائع جيش خالد على أبواب المدينة ، وقد جعلها خالد بينه وبين عياض فكانت حركة منه سد بها طوق الالتفاف الحديدى حولها وأحس القوم بوطأة الهجوم ، ففروا إلى الحصون ، ولكن أنى لهم بالنجاة

وخالد يلاحقهم ويقتلع باب الحصن الرئيسى ، ثم يقتل الذين فيه ، ويأخذ الجودى أسيرا ، ثم يقبض على وديعة الكلبي أسيرا ، ثم أجير بعضهم وأسلم نفسه آخرون وانتهت المعركة .

وما أضخم العبر التى يمكن أن تؤخذ فى كل خطوة من خطوات خالد ورجاله ، قائد يفتح المدينة الواحدة أكثر من مرة . فلقد سبق له فتح دومة الجندل ، ثم استردها كما رأيت ، وها هى ذى الحيرة التى كانت درة فى منظومة الفتوحات الخالدية يجتمع الفرس والموتورون من العرب غضباً لمقتل عقة يريدون استعادتها وطرد العرب المحررين منها ، ويخرج قائد من بغداد(١) يدعى (زرمهر) وآخر يدعى (روزبه) يسير كل منهما فى طريق غايته الأنبار والحيرة على أن يلتقيا معاً قرب الأنبار عند مكانين أحدهما يقال له « الحصيد » والآخر يقال له « الخنافس » .

وكان خالد فى عودته إلى الحيرة ، قد علم بأن القوم قد أطمعهم غيابه عن المدينة فعمدوا إلى استعادتها ، فبعث بعض رجاله يريد مناجزتهم بهم ريثما يأتى هو بخيله ورجله ، فيبيدهم ، ولكن الحيلة لم تجز على القوم ، فأبوا مناجزة السرية ، فبعث بسريتين إلى الحصيد والخنافس يقتلون من يتجمع عندهما من الرجال ، ثم أتى « المضيح » ووافته كتائبه كما رسم لهم بذلك فى ساعة معينة ، ثم بيت لخصومه حتى هاجمهم من ثلاث جهات ، فأفناهم ، ثم وضع خطة الهجوم على أهل (الثُّنى)(٢) وصنع بهم ما صنع بأهل المضيح ، ثم

(١) ليست بغداد هذه أول من بناها المنصور كما يتوهم الكثيرون ، وإنما بنى المنصور بغداده الجديدة إلى جوارها وقد كانت من قبل قرية معروفة فاستحالت إلى مدينة عظيمة هى دار السلام وعاصمة الاسلام فى يوم من الايام .

(٢) موضع قرب الرصافة والزميل .

عطف على أهل الزميل ، ثم مر بالرضاب ، ثم تحرك إلى (الفراض) فى تخوم الشام بين العراق والجزيرة والشام .

وهنا اهتاجت الروم واستنفروا العرب وصالحوا الفرس المتاخمين لهم ، واستعانوا بمن كان قريباً منهم وناجزوا خالدا ورجاله ، ولم تدم المعارك بينهم طويلا حتى انتصر خالد عليهم وغنم غنائم عظيمة .

قضاء التفث :

لم تكن الأحاجى والألغاز فى دنيا القادة جديدة ابتكرتها كلية وولوتش الحربية ، ولا مدرسة بروسيا العسكرية ، ولا أفانين القادة المعاصرين كرومل وويفل وعمر برادلى وإيزنهاور وماك آرثر وتيموشنكو ، وإنما هى الاستعداد الفطرى ، والموهبة الفنية ، ذانكما فى كل حين لم يغير من وضعهما ولم يبدد من مميزاتهما قصر الأولين عن وسائل الآخرين ، أعنى الوسائل الجهنمية التى تفتقت عنها العقول وتمخضت عنها الأبحاث والعلوم ، وما كان خالد عنده من وسائل الانتقال الخاطفة ، وأسباب الحيطة والحذر وإحاطة تنقلاته بضروب الكتمان كما يوجد اليوم فالطيارة والطيارة الخاصة بالقائد العام ، والاتصال بالجيش عن بعد وإن بعدت الشقة وعظمت بشتى الوسائل المبتكرة كالتليفون والتلغراف واللاسلكى ، ومع ذلك كله لو أن قائدا صنع ما صنع خالد اليوم لأثار دهشة واستغرابا فائقين .

فماذا فعل ؟ . . ترك الحيرة وجعل عاصم بن عمرو على مقدمة جيشه الزاحف إليها وشجرة بن الأعز على مؤخرته ، وأسر إلى خاصته فى هذا الجيش أمرا . ثم سار وراء الجيش متظاهرا بأنه فى حراسة المؤخرة وتظاهروا له بذلك أو فى الاشارات والهمسات منه لبعض من اختارهم معه من الرجال

فهم هؤلاء المغزى ، فتوقف ركبه قليلا ، ثم سار بطيئاً حتى غاب الجيش عن عينه ، أو بالحرى غاب هو عن عيونهم ، ثم راح ينهب الأرض نهباً ، ويطوى الفلا طياً إلى مكة المشرفة ، فأدرك الحج بعد اثنى عشر يوما سفراً وعر المسالك والفجاج ، حتى إذا أدى مناسكه ، وقضى تفثه بالبيت العتيق ، قفل راجعاً إلى قيادته ، وكأنه كان مع الجيش على ميعاد إذ أدركه زاحفاً نحو الحيرة ، فما إن وافاها الجنود حتى كان خالد مشرفا عليهم مستعرضا إياهم ، فالمكان الذى ترك الجيش فيه وهو الفراض لم يكن من البعد والشقة بالقدر الذى يقاس بالمسافة بين الفراض ومكة ، ولكن للجيش الثقيل أن يبطىء ، وأن يراعى للجند نصيبهم من أوقات الراحة فى كل مراحل السفر .

أما والمسافر إلى مكة ذلك الفارس الحلاحل ، فإن المسافة على بعدها ذهاباً وأوبة تقصر حتى لتدانى ما بين الفراض والحيرة ذهابا فحسب ، ولشد ما أدهش الجند كون خالد وبعض الساقة محلقين رؤوسهم أو مقصرين ، فلما تساءلوا وعلموا النبأ كادوا من عجب يصعقون ، وكيف لا يصعقون وقد سرت موجة من الدهشة أخذت شدتها تتجاوب حتى رددها الخليفة الذى كان يفكر فى إرسال خالد إلى الشام لينهى أمر (الاستعمار) الغربى من بلاد العرب ، فلا يكون ثمة حكم فى بلاد العرب إلا للعرب ، ورأى الخليفة فى فعلة خالد هذه ما يدل على إعجابه بنفسه ، واستهتاره بعدوه واحتقاره لشأنه ، ولما كتب إليه يأمره بنجدة القواد بالشام ، لم يغفل أن يحذره من تكرار هذا العمل الجرىء فقال :

« سر حتى تأتى إلى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم شجوا وأشجوا

فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك ، فليهنك أبا سليمان النيّة والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعملك . فإن الله عز وجل له المن وهو وليّ الجزاء .

العظمة . .

يقول الدكتور هيكل : « ما سر الموهبة التى جعلت النصر طوع يده ، بل جسمت النصر فى شخصه وجعلته مثاله ، فلو أنه عاش بين اليونان الأقدمين لأسموا إله النصر خالدا ؟ ! أتراه يجيبنا ؟ (يعنى خالدا) ما أظن وهو لا يضن بالجواب استكبارا ، بل لأنه لا يعرف هذا السر أكثر مما نعرف . فهذا السر يتصل بالروح ، والروح من أمر ربى ، وخالد مثلنا لم يؤت من العلم إلا قليلا . ومتى عرف صاحب موهبة مكانها من نفسه ومصدر نبعها من روحه ؟ إنما هى فيض الله يتجلى به على من يشاء من عباده ، فإذا هذا خالد بن الوليد ، وذلك عمر بن الخطاب ، وغيرهما ابن سينا ، وابن رشد ، ورفائيل ، وبتهوفن ، وشكسبير ، والمعرى ، وشوقى ، وهذا الفيض الإلهى الذى يتصل بروح عبد من خلق الله هو الذى يسمو به وبالأمة التى ينشأ فيها إلى حيث يريد الله ، فإذا التقت تيارات الفيض فى زمن واحد وفى أمة واحدة ما التقت فى أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ومن عاصرهم وعمل معهم ، سمت فى فترة وجيزة من الزمن إلى حيث سمت الأمة الإسلامية فى سنوات معدودة ، فانتقلت فى أقل من جيل من بداوة شبه

الجزيرة إلى هذه الامبراطورية المترامية الأطراف المتغلغلة بسلطانها الروحى فى أعماق النفوس ، والتى حملت عبء الحضارة عن العالم كله عشرة قرون تباعا حتى احتملته أوربا ، ولا تزال تنهض بعبئه إلى اليوم » .

قلت : وإن مما يتمم على أمة نعمة هذه المواهب التى يُمنحها فذ من أفذاذها أن تكون مهيأة بطبعها أو مستعدة باكتسابها إلى استغلال هاتيك المواهب ، فتكون الأمة كالمرآة الصقيلة تنعكس عليها أشعة الشمس فتضىء الظلام ، وتمحو الظلال ، أما إذا كانت العبقرية الفذة فى أمة من الأجلاف فإنها قلما تفيد من العباقرة لتوها ، وقد تعيش أجيالا طويلة حتى تتهيأ لابتعاث ألوان من العبقرية ، قد نسجت عليها عناكب الزمن ، تلك هى التى لم يستفد منها معاصروها فائدة تذكر ، وأمثال هذه العبقريات فى التاريخ كثيرة ، لم تلمع أو تفيض من بركاتها إلا بعد موت صاحبها ، إذ تكون الأمة على حال مسامتة لمنحى العبقرى وسموه ، باستعدادها ، وتوفر المواهب المتوسطة التى تدنو من العبقريات الفذة ، فتقرب بين ألوان العقلية فى الأمة وبين المثل الأعلى المنشود ، أما أمة العرب فإنها قد تهيأت بلا شك بما ألهب مشاعرها من إيمان جديد بأن تتجاوب مواهبها الشعبية مع مواهب الأفذاذ والعباقرة فيها فكانت أمة بعيدة الهمة ، عظيمة الإنتاج ، شديدة المراس تتجه إلى أسباب العظمة والمجد فى قوة وسرعة واتزان وعلم ، وهكذا يجب أن يفهم المصلحون قيمة الشعوب فى اجتناء ثمرات المدارك العالية ، وليتجه كل مخلص لأمته إلى العمل على رفع مستواها ما استطاع وبما فى طوقه من أسباب ووسائل ، كى تنمو فيها المواهب وتتجاوب مع مواهب العباقرة

والأفذاذ ، فلا يقال : فلان سبق عصره ، ولا يقال فلان غير مفهوم ، إلى آخر تلك التقريرات القاضية على الشعوب بالجمود والخمود والتأخر ، وقاضية على الأفذاذ بالتفاهة وعدم الجدوى والتسرع والتهور والغرابة ، وإن كان كل أولئك لعمر الحق من الجرأة والصدق فى التمييز وقوة المنطق وذكاء القلب إلى الحد الذى لا يطيق جمهور متأخر مبلغ قيمته ومسئولية فهمه ، ولا يجارى العبقرى فى نظرته ، ولا يسايره فى منطقه .

عمل الأعيسر . .

كنا قد أتينا على مناقشة موضوع إرسال الخليفة ألوية إلى شتى الأمصار لقتال أهل الردة ، وخلصنا منها إلى أنها لم تكن جيوشاً بالمعنى الصحيح ولكنها لم تجاوز السرايا الثُّبين[١] ، وكان من هذه السرايا أو (الدوريات) بلغة العصر سرية خالد بن سعيد ، وكان الخليفة الصديق قد أمره أن ينزل بتيماء ، وعلى طريقة هذه السرايا - لقلتها - كان يجب عليها أن تعمل على جمع بقايا المؤمنين بالدعوة حولها ، فيتكون منهم جيوب تتجمع فى كل صقع لعرقلة حركات القوات المتألبة على الإسلام ، ولتحطيم موجة الشرك .

وكانت أوامر الخليفة إلى خالد بن سعيد ألا يقبل فى صفوفه مرتداً ، حتى تكون صفوفه مطهرة من دغل المجربين لمعانى الشك والذين تظل أبواب نفوسهم مفتوحة عشيّة عوده إليها ، كما أمره ألا يقاتل إلا من قاتله حتى يتوفر له من القوة والحرية والنشاط ما يستطيع به أن يواجه من عساهم يتأهبون لقتاله ، وسار خالد بن سعيد إلى وجهته ، واستطاع أن يجمع حوله

(١) الثبين جمع ثبة ومنه قوله تعالى « فانفروا ثبات أو انفروا جميعا »

رجالا شغفوا بالحق ، وهاموا بالخير ، وكانوا من الكثرة بحيث علم الروم بحشدهم وخافوا خطرهم على أطراف امبراطوريتهم ، وكأن ابن سعيد الذى خرج يقاتل المرتدين إذا قاتلوه ، ويساهم فى جمع صفوف المسلمين قدر له ألا يقاتل بجد وعزم ومضاء ، إلا أولئك الروم الذين لم يدخلوا فى الإسلام ولم تبلغهم دعوته بعد بلاغا عاما شاملا يقرع آذانهم ، ويهز أركانهم ، ويدحض باطلهم ، ولكن هل أقدم خالد بن سعيد على قتال الروم لأول وهلة من لقائهم . . ؟ . . كلا . . وإنما بعث إلى الخليفة يستمده المدد ويطلب منه الإذن بالهجوم ومنازلة الروم . . وكان الخليفة قد تأهب لهذا الخطب الجلل فما حرب الروم بالأمر الذى يهون ، لا سيما والمسلمون لا يزالون فى حرب مع الفرس ، ولا تزال سيوفهم تقطر بدماء المرتدين وهم جلة العرب .

ويقول عبد الرحمن بن عوف : « إنها الروم وبنو الأصفر ، حد حديد ، وركن شديد » وأرسل الصديق إلى اليمن يستقدم منها من عظمت همته ، وجاءه يهرع إليه ذو الكلاع الحميرى وقومه فى عديدهم وحديدهم ، وأرسل يستقدم عكرمة بن أبي جهل من البحرين وحضرموت ، وأرسل إلى شتى البقاع ونفرت هذه الجيوش إلى الشام تريد الروم فى الوقت الذى جاء إلى خالد بن الوليد كتاب الخليفة يأمره باللحاق بخالد بن سعيد وجموع المسلمين المسلمين باليرموك ، وكان ابن الوليد يريد أن ترسخ قدمه فى بلاد فارس وهو الذى ثل عروش الأكاسرة منها واستولى على المدائن ، وكان يريد أن يجنى ثمرات نصره ، ولن يجنيه إلا إذا تابع سيره وفتحه وكرّه إلى تخوم بخارى أو الإيغال فى بلاد خراسان (الأفغان اليوم) إلى قلب الهند ، وكان العراق

كله قد دان لخالد بالطاعة ، ونظر خالد إلى أمور العراق متسقة إليه ، وإلى خطاب الخليفة له باللحاق بالمسلمين باليرموك ، فظن أن هذا من عمل عمر ابن الخطاب ، وأنه هو الذى حض الخليفة على أن ينتزع منه إمارة العراق فقال : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخلة ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى ، وكأن أبا بكر كان يستشف بفراسته أن خالداً يعز عليه كثيراً أن يترك العراق وهو أميره وهو يساوى عشرة عصافير فى يده والشام بأسرها لا تزيد على هذا المقدار عصفوراً أو عصفورين ، ولكنها جميعاً على الشجرة ، فبعث إليه مردفا يقول : «أن استخلف المثنى بن حارثة على العراق بنصف الناس ، وخذ نصف الناس معك ، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك بالعراق » .

وشاء خالد أن يأخذ من النصف الذى معه بالعراق الصحابة وأهل البلاء من السابقين الأولين . ولكن المثنى أبى على خالد ما أراد وقال :

« والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وكيف تعرينى منهم ، ووالله ما أرجو النصر إلا بهم » وخالد الذى فتح العراق يهمه ألا يفلت زمام أمره من أيدى المسلمين ، ويرى أنه يجب أن تكون الحاميات القائمة فيه ذات هيبة وقوة وبأس شديد ، فترك للمثنى أبطالا مجربين حتى أرضاه ، ثم أخذ صحابة معه .

من عين التمر إلى بصرى .. والصهاريج الحية

« لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »

أبو بكر الصديق

أجمع الكتاب المعاصرون على أن مسير خالد من عين التمر إلى الشام(١) « معجزة من معجزات المسير ، وأعجوبة من أعاجيب المخاطرة » و « أن مسيرة(٢) خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائى منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يقفون عندها ، ويكتفى بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » ولم يفصلها أحد ما فصلها ابن قتيبة فى بعض كتبه . ونقاد ابن قتيبة يذكرون أنه مؤرخ شديد الولع بالقصص .

على أن لوقائع الأساسية فى هذه الرواية مذكورة فى تاريخ الطبرى وفى ابن الأثير وفى أكثر الكتب ، وقد يكون فيها ما يحير اللب ويذهل الذهن ، لكن أعمال خالد عبقرى الحرب ، وأكبر قائد عرفه العالم فى عصره لا تخضع كلها للمقاييس المطردة فى أمر غيره من القواد »

قلت : وخلاصة الأمر أن خالداً فكر فى الطريق الذى يسلكه ليبلغ جيوش المسلمين باليرموك ، فعن له أن يسير من عين التمر إلى شمال الشام ، ولكنه رأى أن هذا الطريق مأهول بقبائل العرب المتنصرة والتى تدين

(١) للاستاذ عمر أبو النصر فى كتابه (خالد بن الوليد . الذى لم يغلب) .

(٢) للدكتور هيكل فى كتابه عن الصديق .

بالولاء لقيصر الروم ، وأخيراً سلك الطريق الذى سار فيه من قبل حين ذهب غياثاً لعياض بن غنم إلى دومة الجندل ، ومنها سار من طريق السرحان منحدراً إلى قراقر حيث يقيم بنو كلب ، فأغار عليها ، ثم جمع رجاله وشاورهم فى أمر المضى إلى الشام :

خالد — « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » .

الصحابة — « لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، وإنما يأخذه الفذ الراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين » .

خالد — « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه من معونة الله له » .

الصحابة — « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك » .

خالد — « التمسوا لى دليلا بينكم يسلك بنا هذا الطريق »

وتهامس القوم وتشاوروا فيما بينهم حتى عرفوا رجلا خريتاً يدعى رافع ابن عميرة الطائى فجرى بينه وبين خالد هذا الحوار :

خالد — انطلق بالناس .

— إنك لن تطيق ذلك بما تحمل من خيل وأثقال ، والله إن الراكب المفرد يخشى على نفسه فيها ، إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء .

— ولكن لا بد والله من ذلك فمر بأمرك .

— إذن استكثروا من الماء ، من استطاع أن يصر أذن ناقته على ماء فعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله .

وأسرع خالد ينفذ مشورة الرجل الخبير الرحالة ، فأمر أن تجمع من الإبل سمانها ، ثم أطعمها كثيراً ثم أعطشها ثم سقاها عللا بعد نهل ، ثم صر آذانها ، وكظم أفواهها وربطها حتى لا تجتر ، فكانت كالصهاريج الحية تسير معهم فإذا حطوا أثقالهم وطلبوا الماء نحروا بعضها وأفرغوا ماءها حتى أوشكت الإبل أن تنفق فى اليوم الخامس ، والناس لا يدرون لهذه المفازة من آخر مما جعل خالداً يصيح :

— ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ وكان رافع قد أرمد من شدة القيظ والتحديق وإجالة بصره هنا وهناك فى معالم هذا التيه ، وهو رجل قد وكل إلى علمه أرواح الآلاف التسعة من جنود ابن الوليد وحصون الحق فقال :

— خير ! أدركتم الرى إن شاء الله . وأنتم على الماء .

ولكن أين الماء وأنى لذى عينين مرمدتين أن يرى الماء ولو كان يجرى تحت قدميه مستنهراً ، ورفع الرجل طرف عمامته عن عينيه وقال :

— أيها الناس : انظروا علمين (جبلين) كأنهما ثديان . ونظر الناس هنا وهناك حتى رأوهما فلما أتوا إليهما قال :

— انظروا : هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ ولما أجيب بالنفى قال .

ـ إنا لله وإنا إليـه راجعون ، هلـكتم والله وهلـكتُ ! . . اضربوا يمنة ويسرة :

وفعل القوم ما أمرهم حتى عثروا على جذمها وقد قطعت وعرفوا أنها طلبتهم ودليلهم فـكـبَّروا وقال رافع :

ـ احفروا فى أصلها . فحفروا فنبع المـاء وتدفق خالصاً للشـاربين » ثم قال :

ـ والله ما وردت هذا المـاء قط إلا مرة واحدة مع أبى وأنا غلام .

وعلم خالد أنه على أبواب الشام ، وأدرك مفاتح بهراء « وصبح أهلها وهم لا يحسبون إلا جيشاً من الجن » يدهمهم من وراء هذه المفازات المهلكات ، ثم أغار على القريتين وقصم حيث يقيم بنو مشجعة (بطن من قضاعة) فصالحوه وأغار على أركة وتدمر وتحصن أهلها ثم سلموا ، وبلغ ثنية العقاب من دمشق فنشر عليها راية سوداء من رايات النبى (ص) وأغار على ضواحى دمشق ثم انحدر مسرعا إلى أذرعات وأغار على غسان فى مرج راهط ، ثم بلغ بصرى قصبة حَوْران التى يقول فيها الطرماح :

إذا هبطت بصرى تقطع وصلها   وأغلق بوابان من دونها قصرا

جلس الخليفة إلى أصحابه وقد تلقى نبأ هزيمة خالد بن سعيد الذى أرسله إلى تيماء ليكون ردْءاً للقواد الموغلين فى أرض الشام ، ولـكن خالداً قد أطمعه النصر الأول عند اللقاء الأول فأمعن فى تعقب جيش الروم الذى كان يقوده باهان أحد أركان الدولة الرومانية ، وفى حركة التفاف صنعها باهان طوق جيش ابن سعيد وعزل ولده سعيد بن خالد ، ورأى الوالد مصرع ولده وحفنة من الجند كانوا معه ، ورأى نفسه مطوقا وإن حلقة من الحديد لتوشك أن تطبق عليه ، وضاقت الأرض فى عينيه بما رَحُبت وانتابته الأفكار السود ، ففر من مرج الصفّر إلى الشرق من بحيرة طبرية على رأس جماعة من الفوارس عائداً إلى المدينة .

أجل ، بلغ أبا بكر هزيمـــة خالد بن سعيد ، وشاور أصحابه وكان عبد الرحمن بن عوف قد قال :

ـ « يا خليفة رسول الله إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد ، وركن شديد ، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولـكن تبعث الخيل فتغير فى أدانى أرضهم ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها فتغير ثم ترجع ، إليك . فإذا فعلوا ذلك مراراً أضر ذلك بعدوهم ، وغنموا من أدانى أرضهم فقووْا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصى اليمن وإلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

وتذكر أبو بكر ما وصف عبد الرحمن به الروم من أنهم حد حديد

وركن شديد ، فقال قولة الواثق برجل الحرب الأول :

ـ « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

ثم أرسل إلى خالد بن الوليد :

ـ « إذا جاءك كتابى هذا فدع العراق وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً فى أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلق أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير القوم والسلام عليك » .

غير أن هذه الرواية قد تتعارض مع ما سقناه من كتاب الصديق الذى يقول فيه : « استخلف المثنى بن حارثة على العراق بنصف الناس وخذ نصف الناس معك ، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق الخ . . . » .

ولكنى أظن أن الخليفة حين بعث بالكتاب الذى يأمره فيه بأخذ الفاتحين معه وترك حاميات من أهل العراق أنفسهم أدرك بعد إرساله مباشرة مبلغ الخطورة فى سحب الجيوش الفاتحة جميعاً فأردفه بالكتاب التالى الذى يوصى بترك نصفهم مع المثنى ، اللهم إلا إذا كانت رواية سحب الجيوش جميعاً من العراق ضعيفة أو مصنوعة إلا أنها تمضى فتذكر أن الصديق أرسل إلى أبى عبيدة يُنهى إليه بأمر خالد بن الوليد . ويقول :

قد وليت خالد بن الوليد قتال الروم فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن

له فطنة فى الحرب ليست لك الخ » . والمتأمل فى نصوص هذه الكتب وكان من أهل الذوق فى كلام الصحابة وأحاديثهم ، لا يشك فى أن أبا بكر هو قائل هذا الكلام ، وما كنا بحاجة إلى مثل هذا التعليق منا ، لولا أن هناك روايات أخرى تقول إن خالداً حين قدم على الجيوش فى الشام ومعهم أبو عبيدة وعمرو بن العاص وعكرمة وغيرهم ، لم يكن أحد منهم يرى أن هناك قائداً عاماً للجيش ، وتصور هذه الروايات الجيوش الإسلامية بصورة الفيالق المتناثرة المفككة التى لا يربط بعضها ببعض قيادة موحدة ولا نظام محكم ، وتعزو الرواية أمر اتحاد هذه الجيوش إلى سعة حيلة خالد ونفاذ شخصيته وتنحى القواد جميعاً له عن القيادة العامة ، فإن الأستاذ عمر أبو النصر يقول :

« والذى يبدو لنا أن القيادة العليا لم تكن أمرا مقررا ، ذلك أن الخليفة الصديق لما استنفر الناس لحرب الروم وعقد الألوية للقواد عقد لكل قائد لواء وعين له المقر الذى يجب عليه أن يقصده ويستولى عليه ، فكان كل قائد والحالة هذه قائدا عاما لجيشه ، فلما تبدلت الخطط الحربية الإسلامية فى سورية ورأى القواد ضرورة الاتحاد معاً لمجابهة جيوش الروم البيزنطيين ، خلقت مع هذا الاتحاد مشكلة القيادة العليا على القواد جميعهم ، ونحن نرجح أنه لم تكن هناك قيادة عامة مقررة كما قدمنا ، ونعتقد أن القواد أنفسهم ألقوا بيد التسليم لخالد بن الوليد لما هبط عليهم من العراق ، ثقة منهم بجرأته وقوته وبراعته فى الحرب وغير ذلك » اهـ .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه عن أبى بكر الصديق :

« ماذا يستطيع خالد أن يفعل ؟ إن أبا بكر لم يوله إمارة الجيش حين كتب إليه بالسير من العراق إلى الشام فلو أنه طلب أن يتولاها لأوغر صدر زملائه ولأقام بالمدينة قيامة خصومه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، لكن البقاء فى هذا الموقف على ضفة اليرموك يُزرى به ويُذهب عزم المسلمين » . ويمضى رحمه الله فى تصوير حالة الجيوش الإسلامية وقوادهم حتى يأتى على الرواية التى هى متمسَّك المصدقين لهذه الحال من تفكك وتبعثر وعدم اطمئنان من أن خالدا وقف يخطب فى القواد :

« إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم وأريدوا اللهَ بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ؛ فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » .

فقالوا بعد هنيهة : « هات فما الرأى ؟ » .

قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فاللهَ الله ! فقد أفرد كل رجل ببلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله . هلموا ، فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . هلموا فلنتعاور

الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمَّروا كلكم ، ودعونى أتأمر اليوم » .

ثم يمضى هيكل فى سرد الروايات المتعارضة مع هذه الرواية حتى يأتى على ما سقناه من كتاب الصديق إلى ابن الوليد بتوليته القيادة العامة على الجيوش ، وهيكل إذا دقق النظر وأعمل مقارنته بين الواقع المنطق وبين النقل الروائى استطاع أن يعطى القارىء حكما ناضجاً كأنه كان من الشاهدين ، ولذلك فإنه لم يقتنع بهذه القصة كلها ورجح أن يكون أبو بكر قد أرسل خالداً قائداً عاما إذ يقول : « ولسنا نتردد فى الأخذ برواية البلاذرى (يعنى المصدر الذى روى قصة الكتب المصرّحة بإرسال خالد للقيادة العامة) فليس طبيعيا أن تقف جيوش دولة بعضها إلى جانب بعض ولا تسند القيادة العامة) على القوات كلها إلى أحد الأمراء لهذه الجيوش ، والطبرى نفسه يثبت أن أبا بكر بعث إلى أمراء الجند بالشام أن يجتمعوا عسكراً واحدا وأن يلقوا زحف المشركين بزحفهم . وهذا أمر لا سبيل إلى نفاذه إذا تفرقت القيادة . وقد أصدر الخليفه هذا الأمر قبل أن يبعث ابن الوليد إلى الشام . فلابد أن إمارة الجيش العامة كانت لأبى عبيدة أو ليزيد بن أبى سفيان أو لغيرهما من الأمراء . والراجح أنها كانت لأبى عبيدة وإن ذكر بعضهم أنه استعفى أبا بكر منها . أما وذلك مالا نتردد فى القطع به فلا شبهة فى أن أبا بكر أوفد خالدا من العراق إلى الشام أميرا على جيوش المسلمين كلها ، على نحو ما رواه البلاذرى ومن شاكله » اهـ .

وبعد أن ساق دليلا آخر هو عزل عمر بن الخطاب له إذ لو لم يكن قائدا

عاما بأمر الخليفة الأول لما احتاج عزله إلى أمر الخليفة الثانى ، ولكان مجرد استرداد أبى عبيدة للقيادة كفيلا بعزل خالد عن أمر لم يوله إياه رئيس الدولة . ويمكننى أن أضيف إلى ذلك كله أدلة أخرى استنبطتها من قصة إرسال خالد إلى الشام:

١ — إن خالدا كان قائدا عاما غير منازع فى قطر فسيح يناظر فى أهميته أقطار الشام وإزاء دولة عتيدة قوية هى ضريبة دولة الروم فى قوتها وموقفها من العرب والمسلمين كموقف الروم سواء بسواء ، فليس من وضع الأمر فى موضعه أن تنتزع القيادة العامة من خالد ليذهب مرؤوساً فى ميدان آخر لا يزيد فى أهميته من الناحية المعنوية والأدبية ، بل والمادية كثيرا ، وإن زاد فبمقدار ما ينبغى أن يؤهل لخالد المكان اللائق بانتصاراته فى أرض الفرس ، وبمقدار ما يليق به وبعبقريته ، ولم يبلغ شأوه أحد من الأمراء على الإطلاق حتى الخلفاء أنفسهم وهم الذين شغلتهم السياسة عن النبوغ فى القيادة الأمر الذى مكن لخالد ألا يجد له نظيرا فى قواد المسلمين .

٢ — إن الصديق حين أرسل خالدا لم يرسله قائدا على جيوشه هو ولم يرسل كل قائد قائدا عاماً على جيوشه كما يدعى الأستاذ أبو النصر ، وإلا لما كان هناك من حاجة إلى أن تثبت الروايات ويصف المؤرخون مسيرة خالد بأمر الخليفة إلى الشام ليكون نجدة لزملائه من الأمراء ، إذن فالاتصال بين هذه الجيوش أمر واقع ، واللاحق جاء نجدة للسابق ، والسابق متصل بمن سبقه ، فمن الخطر أن يبعث الصديق خالدا نجدة لقوم لا صلة بينه وبينهم ، ولا تناسق ولا انسجام بين صفوفهم أجمعين ، إذن فمنطق الاتصال

ينادى بأن يكون للجميع قائد عام هم له طائعون ، ولرأيه الأعلى صائرون .

٣ — إذا تقرر هذا كان من المحتم على أبى بكر أن يعين القائد العام ، ولست أسيغ القول بأن مثل هذه الهفوة تصدر عن أبى بكر وأعنى بها عدم توليته أحد الأمراء قائداً عاما على حد تلك الروايات ، وليس مثل أبى بكر من يهفو مثل هذه الهفوة ، بل الكبوة الشنيعة التى قد يذهب فى إثرها كل ماادخره الإسلام من عدة فى الرجال ومجد فى الفتوح ، كما أنه ليس من الجائز أن يترك ذلك اتكالا على حصافة القواد ، وهو يعلم أن من أول واجباته تحديد مسئولية كل قائد وأمير ، ورجل كأبى بكر يكتب لأحد قواده على الشام يقول : « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، إذا وعظت فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، وامنع مَن قِبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم واسمُر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار ، وتنكشفْ عنك الأستار ، واصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس » رجل هذا كلامه وذلك عمق تفكيره ، وأخذه بمفاتح المشكلات النفسية ، وتلخيص عناصر النجاح فى مثل هذه الجوامع البينات ، لمن البعيد عنه كل البعد أن يرسل جيوشاً متتابعة متلاحقة هى كل ما عنده من رجال وعتاد ، ثم لا يعمد إلى تنسيق علاقاتها بعضها ببعض ، ولا باختيار من ينوب عنه فى قيادتها .

بيعة الموت

« ظن عمر أننا لا نستشهد » خالد

علم خالد إذن مصيره ومصير القيادة العامة من الكتاب الثانى للخليفة ومن مجموع كتب الخليفة وأعنى بذلك أنه إذا ظفر فإنه سيعود إلى العراق أميراً عليه كما كان ، وإن لم يظفر فإن مصيره إلى العراق إن نجا ، وهيهات لمحارب يقتحم الموت أن يكون ذلك سبباً مباشراً للتعجيل به « فلا نامت أعين الجبناء » وأراد خالد أن يبدأ عمله بأن يوجه كتاباً إلى القائد الذى قبله وهو أبو عبيدة ، وكان هذا العمل من خالد يدل على الزكانة وحسن التأتّى للأمور كما يدل على الخلق الذى يسمونه فى العصر الحديث « الخلق الرياضى» « سبور » فلم يشأ أن يعلو على رجل سيكون فى صفوفه وتحت إمرته ، بل قال له :

« أما بعد . فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة فى دار الدنيا ، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه ، وأنت رحمك الله على حالك التى كنت عليها لا يُعصى أمرُك ، ولا يخالفُ رأيك ، ولا يقطعُ أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك ، تمم الله بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله»

وعلم خالد كذلك أنه الآن يجوس خلال الديار من أقطار الشام ، وقد التقى بأبى عبيدة ورجاله بين دمشق وبصرى ، وأغاروا جميعاً على غسان فى

مرج راهط حتى بلغوا بصرى ، وتجاوز (باهان) قائد البيزنطيين بجيوشه جنوب الشام إلى أن بلغ اليرموك حيث تقيم جيوش هرقل الرئيسية وعلى رأسها تذارق شقيق الامبراطور « Téodoric » وما كانت هذه الجيوش لو رأيتها إلا رجالا يبدون فى زرقة عيونهم ، وامتشاق قاماتهم ، وتراصّ صفوفهم ، فى عسكرية رتيبـــة إلا فلذة كبد الحضارة الأوربية البائدة ، وما كانت الجيوش فى الميادين إلا إيذاناً بزوال حضارة وحياة حضارة أخرى تقوم على أنقاضها ، ولذلك فقد حشد الروم فى هذا الميدان من العدد ما تكاثر المؤرخين تعدادُه ، حتى ليقول الطبرى إنهم بلغوا أربعين ألفاً ومائتى ألف مقاتل ، ويقول غيره بأقل من ذلك إلا أنه لم يُروَ بَتة أنه كان أقل من مائة ألف رجل ، وعلى أى تقدير كان عددهم ، فإنهم لا مشاحة كانوا أكثر من المسلمين عدداً . وكيف لا ؟ والمسلمون على أحسن الفروض لم يبلغوا أكثر من أربعين ألفاً ، وقد عمد البوزنطيون إلى تقوية الروح المعنوى فيهم بإحماسهم وإثارة النعَرة الدينية وادعاء أن هؤلاء العرب ليسوا إلا قوماً أرادوا هدم المسيحيـة وإذلالها وكسر الصليب ومحوه ، وما كان المسلمون فى حاجة إلى أن ندافع عن أعمالهم وأغراضهم من نشر دعوتهم فالتاريخ والواقع هما أصدق الشهود على أنهم لم يريدوا هدماً ، وإنما أرادوا البناء ، واستفادت دعوتهم من كل شىء بينهم حتى الدعوات المناهضة لها فى توجيهها وجهة صالحة من الخير والإنتاج والتقدم ، وما محا العرب حين اكتسحوا هذه الجحافل من الغرب إلا التزمت والتماوت والخنوع والاستخذاء وعدم الشعور بالحياة الكاملة التى تقوم على الإيمان والعمل ... أجل العمل الصالح ...

عمد القسوس إلى بث روح العداء فى الجيش ، ولم يكتفوا بهذا بل ذهبوا يحرضون أهل البلاد من السكان الآمنين على مناوأة هؤلاء المحررين للعقول المكبلة فى أغلال الأساطير ، وترّهات الأفنين ، ولقد كانت دعوى هؤلاء القسوس أن المسلمين ليسوا إلا قوماً يحملون معهم مبادىء ترمى إلى سلطان المادة على الروح ، وأن التعاليم المسيحية - فى رأيهم - تنافى هذه التعاليم المادية التى تجعل للقوة سلطاناً على الحياة وتوجه الناس إليها وتلهب الحياة بها وتثير مشاعر الإنسان ، كى يتحرك ويقوى ويطلب مكانه تحت الشمس عزيزاً كريماً ، يسخّر كل شىء لمجده ، ويحكم كل شىء فى سبيل سعادته « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات » « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وكذلك كانوا يبغضون إلى الناس الحياة ، وكذلك يكون رجال الدين إذا ذوت منه الحقيقة الإلهية وازورت عن أعينهم ، فلم يروا من الدين إلا الموت والفناء يزوّقونهما للناس فى قوالب من النصوص اللفظية دون سبر لغورها أو استجلاء للحقيقة الإلهية فيها ، وهو ما نشاهده اليوم فى المسلمين ، فإنهم اعتقدوا تبعا لرأى رجال الدين أو لفريق من رجال الدين (ومنهم من يفهم الحقائق الإلهية من خلال آيات الله وقليل ماهم) أن الحضارة الحديثة بما فيها من علوم وفنون وآداب وانقلاب فى المدارك البشرية بلغ درجة لا يتصورها خيال الإنسان القديم ليست إلا حضارة حقيرة رقيعة مادية لا تستحق أن يحتفل بها المسلمون ولا أن يجهدوا أنفسهم فى فهمها فحسبهم أن أربابها ومنشئوها قوم لا خلاق لهم ، ومن هنا بدأوا يقولون إن الإسلام دين روحى وإن قالوا : « روحى ومادى » فلكى يتفادوا الاصطدام بواقع الحياة التى يحيونها إذ أن الحضارة

الحديثة قد غمرت كل شىء فى هذه الدنيا ، وضاقت عليها الأرض بما رحبت فذهبت تغوص أعماق البحار ، وأجواز الفضاء وأجرام الفلك ، ولكنهم مع هذا يدورون حول تحقير الحضارة وتوهينها والزراية بها ، ولو عرف هؤلاء قيمة أنفسهم وقيمة ما يحملون من أمانة العلم لحولوا شعور المسلمين إلى أتون ملتهب من الرغبة فى الحياة والشعور بها شعوراً كاملا ، ولدفعوا بها إلى الأمام يكفرون كل من قعدت همته عن العمل لمجد الإنسانية ورفعة مداركها بقدر ما تواتيه وسائله الطيّعة ، ولو علموا أن تنمية قوة الأمة فى ثروتها ودركها أرقى مراقى الحياة من صناعة وتجارة واختراع واكتشاف ، وأن ذلك كله هو العبادة الحقيقية التى من أجلها خلق الله الأرض والسموات ، ومن أجلها ندب الإنسان خليفة له فى الأرض على عناصر الكون كى يتعرف إلى أسراره وحقائقه لو علموا ذلك كله لخدموا أمتهم أجل خدمة ولكانوا أكبر محرك يستمد من الدين قوة على الحفز والنهوض والثورة على العجز والقصور ، ولاستطعنا بفضلهم أن نجد بيننا من يقول : « إن الدنيا قد خلقت لنا نحن لأننا أعدل وأرحم وأكرم وأتقى وأنقى ممن لا يوجد عندهم مثل عقيدتنا فى الحياة فنحن صمام الأمان فى هذا العالم » .

ألا جادك غيث رضوان الله يا خالد فلقد ألهبتنا بجم نشاطك وعلو همتك حتى خرجنا عن وادى التأريخ إلى بيداء الدعوة إلى الإصلاح وما كنا إليها قاصدين ، ولكنها نفحة من إشراقك على هذا القلم حزت فى نفسى إذ تصورت الفارق بين حياة هذه الأمة صدر أيامها وبين ما هى عليه اليوم :

من لى بمن يُنبى الجدود بأننا   وقد عز عبدان الجدود نهون

وأنا إذا اعتمنا بصوب علائهم   تناهبت القلب الحزين شجون

* * *

نظر خالد إلى الأعداء وهم أحسن ما يكونون تعبئة ، وكثرة وحماسة وقوة ، فلم يصنع لهم رقية يتمتم بها كى يتفوق عليهم بمحض الوهم كما يفعل الجاهل المتخاذل ، ولكنه عمد فى حدة وصرامة بعد تفكير وتقدير وتدبير إلى تقسيم جيشه إلى أقسام سماها « الكراديس » كل كردوس ألف رجل وعليه قائد يتولاه ويكون أحد الشجعان المشهورين من كل قرم حلاحل كضرار بن الأزور والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو وصفوان بن أمية وغيرهم ...

فاجتمع له نحو من أربعين كردوساً كل واحد منها كالبنيان المرصوص فى تماسكه وتجانس أفراده ، ثم قسمها جميعاً إلى خمس فرق كل فرقة تضم عدداً من الكراديس جعلها : إحداها على ميمنته وعليها أميراها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأخرى على ميسرته أميرها يزيد بن أبى سفيان ، وثالثة فى القلب بإمارة أبى عبيدة ، ولم يقل المؤرخون من هما قائدا المقدمة والمؤخرة ، ولعل خالداً كان يقود الأولى ، وجعل أبا سفيان بن حرب قاصا يحرك فى نفوسهم معانى الإقدام والجرأة والتفدية كما نصب أبا هريرة قاضياً .

وعسكرت هذه الكراديس بعد أن عبرت نهر اليرموك فى صعيد من الأرض يقع بين معسكرات الروم وطريقهم إلى داخل البلاد ، ولما كانت

واقوصة التى تبعد نحواً من ثلاثين ميلا من ملتقى نهر اليرموك بالأردن محاطة بجبال شاهقة من ثلاث نواح ، وقد اختارها الروم معسكراً لهم ، فقد اختار خالد الناحية الرابعة وهى الجهة الوحيدة التى تقع عليها طريق الروم ، ومن هنا صاح عمرو بن العاص : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير » . ظلت الحركات فى صفوف المسلمين تدب على هذا النشاط وفى هذه القوة فى التشكيل والتنظيم ، وقد استغرقت الجيوش فترة من الزمن تبلغ نحو ثلاثة أشهر ، يتلقى فيها القواد أوامر خالد وهو الذى لم يكتف بأن يستفرغ وسعه فى هذه الأمور الداخلية فحسب ، بل ظل يراقب حركات العدو مراقبة طوعت لعبقريته أن تلم بحركات البيزنطيين وخططهم ، وربما استطاع تقدير عدد قواتهم التى لا يحيط بها الإحصاء ، وليس أفعل فى علاج قلة عدد الذين معه لكى يستطيعوا أن يسامتوا فى قوتهم من هم أكثر منهم عدداً وعدة ، من هذه العناصر التى يخلقها الذكاء الخارق ، فالنزول على الطريق الرئيسى للروم ، وحصرهم فى صياصى الواقوصة وخنادقها ومغاورها وتقوية الروح المعنوية فى الجيوش بأمثال دفاقة التحريض ، وألسنة البيان الموقظ للهمم كأبى سفيان ، ومن كأبى سفيان فى التحريض والخمش ؟ وهو الذى أقام الدنيا وأقعدها حول محمد (ص) ، أئذا آمن هذا اللسان بدعوة محمد أتغيض من حصائده قوته على ذلك فى سبيل الله ؟ . . أم أنها تفيض فلا تغيض ؟ . . أجل ، وهل بعد هذا المنطق الجامع منه منطق يفعل الأفاعيل فى النفوس : « اللهَ اللهَ ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليوم من أيامك ، أنزل نصرك على عبادك » .

ثم هذا التصنيف والتصفيف لأربعين كردوساً يوضح خالد بعض أغراضه منها بقوله :

« إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس أكثر فى رأى العين من الكراديس »

ثم يمضى خالد فى العلو بجنده والسمو بمعنويتهم بتحقير عدوهم فى أعينهم بما يرسله فيهم من كلمات الثقة والاعتزاز ، سمع رجلا : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين » فغضب كأنما رأى معولا يهدم فى كيان قوة جنده فصاح فى وجهه قائلا : « بل ما أكثر المسلمين وأقل الروم ! .. إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالهزيمة والخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر برىء من توجيه(١) وأنهم أضعفوا فى العدد » .

إن الممعن فى هذه الأمور كلها يرى أنها من أسباب النصر ، لو وجدت من يحسن استغلالها ، ومنذا ينكر أن خالداً صاحبها وخالقها وهو أول من يستطيع حيازة النصر بها ؟ ..

* * *

« سيف الله المسلول » عبارة تناقلتها الألسن ولقب طالما ارتعدت من

---

(١) وجى الماشى إذا حفى وهو أن يرق القدم أو الفرش أو الحافر وينسحج وأصابه وجى وفرس وج ودابة وجية وإنه ليتوجى فى مشيته (ومن المجاز) أوجيته عنى أبعدته كأنك سيرته مسافة طويلة قد وجى فيها قال ابن عتاب :

وكان أبى أوصى بكم أن أضمكم ... إلى وأوجى عنكم كل ظالم

وقال آخر :

وأشوش ظالم أوجيت عنى ... فأبصر قصده بعد اعوجاج

ذكره فرائص قواد الفرس من قبل ، وهاهو ذا يسبق اللقب صاحبه ، وكأن الرسول حين وصفه به قد رشحه للقيادة العليا لقوات الإسلام ، وجعل من هذا اللقب سلاحا من أسلحة الحرب ، وعاملا من عوامل الفت فى عضد العدو وتوهينه وإضعاف عزمه ، وكان من المقيمين فى تلك الفيافى قوم يشتغلون بالتجسس بين الفريقين ، وقد نرى بين السذج من أمثال هؤلاء الجاهلين من يعجز عن تعليل الظواهر تعليلا منطقياً معقولا ، فيضيق تفكيره عن كبح خياله الكاذب ، ومن ثم يكون ما يرويه نواة من نوى الأساطير قد تبقى فى أكثر الأحوال شاهدة على مبلغ تعلق الجماهير بالصور الرائعة من أفانين الخيال الشاعر ، وتسامع أهل المعسكرات من الروم عن قائد جيش المسلمين وعن سيفه ، ذلك السيف الذى إذا خاض به المعامع تساقطت حوله هامات الرجال كما تسّاقط أعواد البُر حول المنجل ، وأذيع بينهم أن هذا السيف ليس من سيوف الأرض ، وإنما هو سيف نزل من السماء ، على النبي (ص) فأهداه خالداً ، وكان ذلك قول من يحسن الظن بالمسلمين ، أما الذين انطوت نفوسهم على الغمر والسخيمة والشنآن ، فإنه لا يسعه إلا أن يقول إنه سيف من سيوف الجن . . .

وانتبه جرجة بن تيودر أحد أمراء الروم ـ وكان عربى الأصل أو مستعرباً ـ على هذه الأنباء ، وأراد أن يتصل بذلك القائد الخارق وقد مال قلبه إليه ، وفى لحظة من لحظات النهار، وكان عكرمة بن أبى جهل على كردوس أمام فسطاط خالد يسوى صفوفه ، إذا بجرجة على فرسه يقبل مسرعا نحو فسطاط خالد ، وكأنه يسابق جنود باهان وقد أمروا بأن يلاحقوا جرجة

حيث ظنوه يريد البدء بالهجوم من جرأته وشجاعته وحبه أن يكون طليعة جيشه ، ومن هنا انقض الروم على المسلمين ، ورأى خالد جرجة فأراد أن يفتتح له ثغرة يمكن أن يطوقه بها هو وجنوده ، لولا أن الروم الذين يلاحقونه قد صدقوا فى الهجوم حتى زُحزِح المسلمون عن مواقعهم ، وفى هذه اللحظة والاشتباك على أشده بين الفريقين ، كان جرجة ينتحى عن جيشه بعيداً لينفرد بخالد وبعض من معه فيقول :

- يا خالد ! لا تكذبنى فإن الحر لا يكذب . ولا تخدعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسُلّه على قوم إلا هزمتهم ؟ ..

- لا .

- ففيم إذن سميت سيف الله ؟

- إن الله عز وجل بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا كذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين . ودعا لى بالنصر ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

واستمع جرجة ورجاله إلى هذا الكلام الواضح الصريح الذى لا يلابسه غموض ولا تضليل ، ورأوا فيمن يتكلم شخصية فذة لا تستغل خيال الجماهير ولا تثير حولها الأقاصيص والأساطير فتطرق الحديث إلى الدعوة

ومن خالد تُفهم الدعوة على حقيقتها من غير تزويق ولا خلابة ، وفى بلاغة صارمة ولهجة صادقة أفهمهم خالد أساس الدعوة المحمدية ، وهم هذه اللحظة كانت الجيوش الرومية بخيلها ورجلها قد أدركت مخيم خالد وصارت منه قاب قوسين أو أدنى . وكان عكرمة أمام الفسطاط يذود عنه بكردوسه ، ثم نادى فى صيحة مدوية :

- قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر منكم اليوم ! ! . . ثم صاح بالمسلمين : من يبايع ؟ . . من يبايع على الموت ، وأسرع إلى إجابته أنهد فتيان بنى مخزوم وأشجع فرسان العرب ، كالحارث بن هشام المخزومى ، وعمرو بن عكرمة . وضرار بن الأزور وغيرهم من المشهورين الذين بلغ عددهم نحواً من أربعمائة تكونت منهم فرقة الموت. ولعل نظام (الكومندورز) عند الإنجليز فى الحرب الأخيرة ، وقد نشأ مستمداً من آلام الشعب ومتاعبه ومناعته من أن يقبل الهزيمة أمام عدو شديد البأس كان متحداً فى غرضه وظروفه إلى حد ما مع (كوماندورز) خالد بن الوليد ، ووقف هؤلاء فى وجه الكتائب الزاحفة من الروم ، ثم اقتحموا صفوفهم لا يبالى أحدهم أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، ووقف خالد يشرف على هذه المذبحة المروعة الرهيبة ، وجنود المسلمين تنوشهم الرماح من كل مكان ، وهم رغم ما بهم من جراح ما برحوا يُلِحون على العدو ويمعنون فيه تقتيلا وفتكا .

ونظر الروم وقد أفاقوا من غشيتهم ورأوا الموت يحيط بهم وزادهم يأساً أن رأوا جرجة أحد أمرائهم ومعه جماعة من الروم يحاربونهم فى

صفوف كتيبة الموت عندئذ انحلت وحدتهم وضعفت ثقتهم بعضهم ببعض ووهنت روابطهم ، وأضحى كلٌّ يخشى أن ينقلب الذى إلى جواره عليه بغتة فيقتله ، أو ينقلب الأمير الذى يقوده مسلماً كما فعل جرجة فتكون القاضية على بنى الروم فى هذا الشرق ، ومن هنا كان كل واحد منهم لا يقاتل إلا بمقدار ما تتحرك يده يدفع عن نفسه كل شيء يعترضه إلى سبيل الهروب ، أجل رأى خالد أن الجيوش الرئيسية للروم قد فوجئت بهزيمة هذه الطليعة منها ، فانتهزها فرصة ليضرب ضربته الأخيرة . . . ضربته الحاسمة ، فى ميدان ليس أعظم ميدان خاضه من قبل ، بل أعظم ميدان خاضه العرب فى تاريخهم ، وماذا تكون معارك البسوس ، ولاذى قار إلى جانب هذه المعارك ، التى يتقرر فيها مصير الإنسانية فى مرحلة حاسمة من مراحل التطور والتقدم فى لحظات؟ . . ومن ثم فقد أمر الكراديس أن تتولى تصفية الحساب مع العدو وإذا بها تخرج منتشرة فتملأ الفضاء وتسد الأفق . على أن الروم لم يكونوا حين أمر خالد بذلك إلا متأهبين لما أعد لهم بهجوم صادق عنيف ، واخترق خالد بمن حوله من بعض كراديسه يفتح ثغرة فى صفوف البيزنطيين حتى صار بين خيلهم ورجلهم ، هنالك انبرى المسلمون ينافخون كى يصلوا إلى قائدهم فى هذا الطوفان اللجىّ من الروم ، وزاد فى حماستهم أن النساء كن يقاتلن مع الرجال جنباً إلى جنب ، فضلا عما كن يتولينه من أعمال الإسعاف كسقى الظماء وتضميد الشجاج وتجبير الموضحات (١) الهواشم .

(١) التجبير وضع الجبيرة وهى الرباط . الموضحة جرح يبدو منه العظم واضحاً . والهواشم جمع هاشمة من إطلاق اسم الفاعل على المفعول والمراد به العظم الذى تهشم مراسه .

قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، ولكن رجلا منهم لم يهلك دون أن يليط الأرض بعشرات من مداعس العدو ، حتى خارت قواهم ـ أعنى قوى البيزنطيين ـ وظهر لخالد أن الفرسان يلتمسون المهرب ، فأمر رجاله أن يفتحوا لهم طريقاً يفضى بهم إلى فسيح الفضاء ، حيث لا نبت ولا ماء ، حتى يحم بهم القضاء وليفت فرارهم فى أعضاد الرجال غير الركبان ، فلا تطول مقاومتهم أجمعين ، وأسلم للموت منهم فريق رأى العار فى الفرار أو ذل الإسار فتزمل (١) حتى أجلته سيوف الكرّار . . .

إنها الحرب . . . إنها الغاشية التى يحملها الموت الزؤام إذا صبَّح قوما هم له كارهون ، صف كالبنيان المرصوص قد اقترن رجاله جميعاً بالحديد ضاقت عليهم سبل الهرب إلا سبيل الهاوية التى احتفروها لتكون خندقا لهم فألقوا بأنفسهم فيها ، وأعملوا نظامهم العسكرى الرتيب فى اهتلاكهم وبوارهم ، كأنهم جدار تدهور دفعة واحدة ، هذه هى نهاية المعركة التى تجهز لها الروم أيما تجهز وأعدوا لها ما استطاعوا من قوة ، ولكن هكذا شاء النصر إلا أن ينحاز للعدد القليل فيظفر بخمسة أضعافه فى ثلاث جولات صادقات ، حبتها العبقرية قيادة واثبة ، ومنحها الإيمان قلة غالبة .

أين تذارق الأمير وشقيق الأمبراطور؟ . . . إنه مجندل على الثرى ، أما (باهان) فلقد انسحب من هذه المعركة هارباً ببعض رجاله ينشد السلامة فى

(١) كان ذلك من عادة المقاتلة قديماً إذا شاء أحدهم الموت تزمل وجلس مكانه حتى يريحه من الحياة مدعس .

غير هذه المعمعة ، وها هو ذا خالد يحتل مركز القيادة العامة التى كان يقيم فيها تذارق فهذا رواقه الفاخر يتخذه خالد مستقراً ومقاما ، ثم يقسم منه أنفال الجنود وغنائمهم وقد زادت قسمة الفارس على ألف درهم .

* * *

ثم أين عكرمة والصفوة المختارة من أصحابه الذين كانوا طليعة أهل البأس والبلاء فى ذلك اليوم المشهود ؟ . . .

وسرح خالد نظره من شرفة الرواق فلمح دونه أولئك الذين لم يكتب لهم أن يظفروا بثمرات فعالهم ، وقد طأطأ العدو رأسه عند أقدامهم ولكن بعد أن صاروا جثثاً هامدة . . . وأخذ البطل برأس عكرمة وهو ابن عمه والحارث بن هشام عمه ووضعهما على فخذيه ، وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر الماء فى حلقيهما حتى فاضت روحهما ، ويروى المؤرخون أنه قال : « ظن عمر أننا لا نستشهد » .

* * *

ما هذه الخصومة الغامرة التى يحاول المؤرخون من العرب أن يظهروا بها العظيمين الشبيهين (١) ؟ ألا إن عمر بن الخطاب لأعظم من أن يناصب بطلا أجمع الناس على إجلاله ، وما كان خالد كما يصورونه فى صورة راهب

(١) كان عمر وخالد شبيهين فى الطول والعرض والخلقة ولم يكن يفرق بينهما إلا أثر الجدرى فى وجه خالد ، وقد روى أن بعضهم كان يرى عمر فينادىء : يا أبا سليمان ، وقد يمضى فى الحديث عن عمر وعمر يسمع كأنه أبو سليمان خالد بن الوليد .

يتلقى الأوامر فلا يملك إلا الاستسلام فى غير ما تردد ولا تدبر . . . أقول هذا بمناسبة ما أجمع أو كاد يجمع عليه هؤلاء من أن المعركة ما كادت تنتهى حتى قدم محمية بن زنيم بريداً من عمر بن الخطاب بكتاب فيه استخلاف عمر ووفاة أبى بكر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة ، ولكى نناقش هذه الروايات ينبغى أولا أن نقرر مصير بعض الأمور فى ديار الشام ، ثم نمحص أسماء بعض هذه المعارك وبعد ذلك نحكم على ضوء هذه الآيات ، وقبل أن نأخذ بهذا نلفت النظر إلى بعض ما جاء فى هاتيك الوقائع :

١ — إن عمر ما كان يصدر فى كل أموره التى وقف فيها إزاء خالد ، إلا موقف صاحب الرأى الذى يرجح صواب رأيه ، ويمكنك إذا تتبعت آراءه كلها التى تتعلق بخالد أمام الصديق ، فإنك واجد فيها الرغبة فى الخير وعزة الإسلام والمسلمين ، فظنُّ خالد أن عمر قد نَفَس عليه أمر العراق وأراد أن يلقيه فى أتون مستعر من الحرب مع الروم بعد فتحه العراق لا محل له كما رأيت ، ولا نكاد نعثر على ما يبرره أو ما يسنده إلى شبهة من الهنات يرتكبها عمر فى حق خالد ، ورأىُ عمر فى موضوع زواج خالد بأم تميم له ما يبرره من ظاهر الواقعة ، ولعمر رأيه ولأبى بكر رأيه ، ولكن تلك الواقعة لم تؤثر بتة فيما لخالد من المكانة فى النفوس ، ولا سيما نفس عمر بن الخطاب .

٢ — إن رواية عزل عمر لخالد بن الوليد على الصورة الواردة على اختلاف أشكالها وأساليبها من أن خالداً تسلم الكتاب من البريد وكتمه حتى انتهى أمر الموقعة وتوزيع الأسلاب ، ثم أظهر مافيه ، أو أن أبا عبيدة

هو الذى تسلم الكتاب وطواه عن خالد وعن الناس حتى حصار دمشق ، ثم فضه فى مناسبة ، أشك كثيراً فى صحتها ، وما كنت أشك قليلا ولا كثيراً فى صحة مثل هذه الصورة وعزل خالد عن إمارة الشام ضربة لازب ، وأمر واقع لاشك فيه ، أجل ماكنت أشك فى الوقت والسبب والمناسبة التى عزل عمر فيها خالداً ، ثم الصورة التى يحاول الرواة تصوير بلاغ خالد وأبى عبيدة أمرها ـ لولا أن ديناراً ذهبياً ضرب فى طبرية فى السنة الخامسة أو السادسة عشرة من الهجرة من دنانير خالد بن الوليد ضربت على هيئة الدنانير الرومية بصليبها وصولجانها مزيدة باسم خالد . . وقد كتبت فى كتابى « تاريخ النقود الإسلامية(١) » عنها ما يأتى :

خالد يضرب الدينار :

أى خالد :

ماذا جال فى خاطرك حين اتخذت شعار الأباطرة من القياصرة والأكاسرة ؟ . . وماذا تحدثت به مع نفسك حين أمرت بنقش اسمك ؟ . . أليس فى ذلك ما يدعو إلى الارتياب ؟ . . دعنى من فضول من زعم أنك أمير المؤمنين بنقش الصليب والصولجان ، وهما شعار دولة الرومان ، دولة النصارى ، وأنت قائد المسلمين . . .

دعنى من هذا . فإن عمر من التسامى بحيث لا يسف فى مؤاخذتك ، ولا يهفو هفوة يتصدع لها كيان العرب يوم كان تماسكه آية صدقهم فى

(١) هو كتاب لم ينشر بعد قد أتممت منه مايساوى مجلداً وقد تشعبت فصوله واتسع عطنه ولازلت أدون فيه لاتمامه ليكون أوفى مرجع فى النقود الاسلامية . الله المستعان

إيمانهم وجهادهم سيا وهو يعلم ـ لو كان ضرب النقود مباحاً لك ـ أن البلاد حديثة عهد بحكم المسلمين وأهلها من النصارى وضارب النقود منهم حتى جاءت رومانية فى مظهرها .



النقود الرومية ويرى الصولجان والصليب على الوجهين



نقود خالد بن الوليد

ولك العذر كل العذر . أما ضربك النقود فى ذاته ، وكتابتك XANEΔ وهى حروف اسمك باليونانية على وجه الدينار ، فهذا هو الافتيات على مقام الخلافة العظمى ، قبل أن يكون للخليفة نقود باسمه ، فهل كنت تريد أن تجرىء المسلمين على ما لم يتناولوه من قبل ؟ . . .

وليت شعرى كيف يصح ذلك فى منطق العقل ! هؤلاء قوم سادوا على أصحاب الدنانير وضاربيها ، وطئوا منهم الهام وركلوا الطاغين بالأقدام ، فليس من سبيل إلى تجريئهم على عمل لم يتهيبوه وهو شىء إلى المظهر ـ بالنسبة لكفاحهم ـ أقرب منه إلى الجوهر .

أى خالد :

لا جناح عليك إذا ضربت النقود باسم خليفة النبى (ص) أو ضربتها كما صنع عمر بعدك ـ يا أول من ضرب للمسلمين نقوداً . ورفع فى الخافقين للعرب بنوداً ـ حين كتب عليها اسم الله مقروناً بالتعظيم والثناء ، وذكر محمد سيد العرب بل سيد البشر :

« الحمد لله محمد رسول الله » و« لا إله إلا هو » وعلى جزء منها « عمر » نعم لا جناح عليك ، لو كان . . !!

يقول المقريزى : « إن عمر أول من ضرب النقود فى الإسلام » وقد قدمت بيان ذلك فيما سبق (أعنى بحثى فى نشأة النقود) ولكن قد آن لى أن أمحص وجه الحق وهو أكثر تبلجاً من وجه الدينار .

حاول الذين تناولوا سيرة خالد أن يظهروه بمظهر الراهب الذى يتلقى الأوامر فيتقبلها فى طاعة ومسكنة ، والذى يعرف وقفات خالد فى خلافة الصديق ، وتصرفه فى كثير من أوامر الخليفة مجتهداً ، ثم شخصيته القوية ، وزعامته الجبارة ، مما يستبعد معه أن يقف مكتوف اليدين إذا تعرض أحد للتنقيص من هيبته ، نعم ليس من طبيعة العرب وبخاصة إذا كان رجلا معمعانياً كابن الوليد أن يستسلم صابراً لما يخاله تعرضاً لمركزه من الإمارة ، وهو السيف الذى سله الله على الأعداء ، وليس من طبيعة خليفة عظيم كعمر ابن الخطاب أن يزل أو يهفو والمسلمون مقدمون على معركة كبرى هى وقعة اليرموك وقائدهم يسير بهم من نصر إلى نصر ، فلم يظهر من ضعف القيادة ما يوجب عزله ، وليس ما بين عمر وخالد قبل خلافة عمر بالذى يجعله يتهافت على عزله لأول وهلة . . . والمسلمون فى حاجة إلى قوة معنوية ، وأخرى مادية ، يقومان التماسك والوحدة .

قال باحث أردنى يدعى « العُزَيْزّى » بالتصغير فى رسالة نشرت مع مجموعة النقود العربية وعلم النميات للأب أنستاس مارى الكرملى :

« نعتقد أن الأسطورة التى حاولت الغض من قدر عمر وتعظيم تسامح

خالد وتساميه كانت أسطورة ملفقة ، دست فى تاريخ العرب لأغراض لا تخفى على المدقق . (إلى أن قال) : وأظن أن الذين دسوا هذه الأسطورة كانوا على جهل فاضح للنفسية البدائية (كذا) إذن فعزل خالد كان بعد وقعة اليرموك . وكان ضربه للنقود باسمه من أهم أسباب عزله ، ثم قال بعد أن أتى على وصف نقود عمر :

« ولعل اتخاذ عمر النقود الفارسية وإعراضه عن الرومية كان نقمة على خالد بن الوليد ، مع أن المذهب السياسى كان يقضى على عمر أن ينسلخ بتة عن الفرس لكى يلاشى هيبتهم من نفوس العرب الذين كانوا خاضعين للفرس ويضربون بقوتهم المثل ، ولكنه آثر رسم النقود الفارسية — على ما نظن — احتقاراً لرأى خالد ، الذى لم يكن — فى رأى عمر — فاهما للإسلام على وجهه الحق » .

انتهى كلامه بما فيه من مبالغة وتهويل وإن كان فى إجماله — بغض النظر عن بعض الإنحراف — الحق . ثم أقول : والدليل المادى الذى يمحو شبهة عزل خالد فى وقعة اليرموك هذه النقود وقد رأيت اسم خالد بالحروف اليونانية منقوشاً عليها مع كلمة « بون » التى تقرأ (بو) ويقول المؤرخ الألمانى الدكتور مولر : إنها مقتطعة من كنية خالد « أبو سليمان » واتفق الذين تناولوا بحث هذه النقود أنها ضربت فى طبرية قصبة الأردن(١) ،

راجع : Der Islam im Morgen-und Abendland, von Dr. Müllar والتمدن الاسلامى وتاريخ مصر الحديث وكلاهما للمرحوم العلامة جورجى زيدان والنقود العربية وعلم النميات للأب أنستاس مارى الكرملى .

وطبرية لم يستول عليها المسلمون إلا بعد وقعة اليرموك أو بعد فتح دمشق فيكون خالد قد ظل أميراً على الجيش حتى فتحها واستقرار المسلمين فيها إلى أن ضرب نقوداً بها ، وبما أن العزل قد وقع فعلا فوجب أن يكون بعد ذلك ، فإذا تلمست أسبابه ، وجدت أن ضرب الدينار مما أثار فى نفس عمر ارتيابه ، وهناك يكون منطق الخليفة سليما فى عزله ، ومنطق خالد طبيعياً فى صبره واستسلامه له وولائه . . . ثم إنى رأيت تعليقاً لأستاذى العلامة الأب أنستاس الكرملى على رأى الدكتور مولر رأيت أن أنبه إليه وأظن أنه مر على سيادته دون أن يمعن فيه كثيراً وهو الرجل الحجة وإلا لما سمح لقلمه أن يقصر به ، ولصرير قلم الكرملى دوى ولمداده بريق يلفت الأنظار ، وذلك أنه عندما نقل العزيزى رأى الدكتور مولر من أن خالد بن الوليد يوم ضرب النقود فى طبرية سنة ١٥ أو ١٦ هجرية جعلها على رسم الدنانير الرومانية تماما . وأبقى عليها الصليب والتاج والصولجان علق العلامة الكرملى على الهامش قائلا :

« نظن أن الدكتور الألمانى واهم فى قوله (طبرية) ، وإنما هى طبرستان فى فارس ، ولهذا قال الدميرى وغيره : « على الطريقة الفارسية » اه أقول وليس الواهم الدكتور مولر والحق يقال . فإن طبرستان لم تفتح على يد خالد ولم يدخلها حيا ولا ميتا ، ثم إن الدميرى حين قال : « على الطريقة الفارسية » لم يرد إلا النقود التى ضربها عمر لا خالد ، قال الدميرى : « إن رأس البغل ضرب نقوداً لعمر بن الخطاب على الطريقة الفارسية عليها صورة الملك ، ومكتوب تحت كرسيه بالفارسية « نوش خور » أى « كل

هنيئا» اه . ولا شك أن النقود الطبرية فارسية ، أما النقود الطبرانية فرومية خالدية ، والنسبة إلى طبرستان طبرى وإلى طبرية طبرانى فنقود خالد طبرانية لا طبرية ، ورومية لا فارسية . اه ماقلنا فى كتابنا تاريخ النقود الإسلامية .

اليرموك وأجنادين . .

أخيراً . . انتهت الأنباء إلى هرقل وهو فى حمص بأن الزمام قد أفلت من أيدى أمرائه وأركان حربه فعول على أن يذهب بجيوشه الباقية معه وفُلاّل من تجمعوا حوله من بعد أن هاموا على وجوههم هنا وهناك إثر كل هزيمة . . وأن تكون وجهته عاصمة الشام الدينية تلك التى حوت رأس يوحنا المعمدان فصارت قبلة الأمم المسيحية بعد بيت لحم فى المقدس ، فليذهب هرقل إلى دمشق وليتحصن بأسوارها المنيعة ، فإن خالداً سيتبعه لا محالة ومن يدرى ؟ . . فلعل دمشق ترد عنها عادية المغير ، ثم تكون الكرة لحماتها على هؤلاء العرب الذين يريدون أن يخلصوا بلاد العربية من نفوذ عتيق راسخ انحدر بعضه من الشرق على أيدى عبدة مزدك والآخر من الغرب على أسنة الحراب اللاتينية لبنى الأصفر . .

لندع هرقل إلى حيث يشاء الذهاب لنأتى على بعض ما دار حول معركة اليرموك من اضطراب ونزاع حول مكانها وزمانها ، فالمؤرخون العرب قد اختلفوا فى زمن وقوع معركة اليرموك أو أجنادين ، هل كانت قبل فتح دمشق أو بعدها وقد دعا القائلين بأنها بعد فتح دمشق هو ما قررنا من أن خالدا انحدر من بصرى إلى ضواحى دمشق مشرفا عليها ، وقد يكون جيش

خالد قد مكث برهة من الزمن حول دمشق ، مما أوهم المؤرخين أنه الحصار المشهور فخلطوا بين هذا الحصار المؤقت وبين الحصار الذى انتهى بسقوطها . أما القائلون بأن دمشق فتحت بعد اليرموك فهم أصحاب الروايات الراجحة ، وقد ذهب بعض المستشرقين إلى وقوع معركة اليرموك مرتين ، مرة فى السنة الثالثة عشرة للهجرة والأخرى فى السنة الخامسة عشرة ومن هؤلاء « الأستاذ ميشيل دى جويى » وقد دعاه إلى ذلك ما رواه الطبرى من أن معركة اليرموك وقعت فى أجنادين الواقعة بين الرملة وبيت جبرين ، يرويها عن ابن إسحاق ويروى الطبرى عن غيره أنها بين الرملة والخليل . ويأخذ من هاتين الروايتين المستشرقون أن بين تلك الأماكن المذكورة مكان (يرموثا) القديمة التى حرفت (يرموك) وأجنادين تقع بالقرب منها فسميت بها أيضا والمعركة الثانية وقعت بعد ذلك والتى اتخذت اسمها من النهر القريب منها نهر (يرموث) هيروماكس على أن الأساتذة المستشرقين وعلى رأسهم دى جويى لم يثبتوا لنا بدليل قطعى ولا ظنى وقوع معركتين ثمة والمعارك ليست من الأشياء التى تمر حوادثها دون أن تترك أثراً دامياً يدل عليها عند أحد الفريقين أو عندهما جميعاً ، وليست الأمة العربية من البلاهة بحيث تذهب ضحاياها فى تلك البقاع ويروى مؤرخوها أحداثها الجسام ، ثم يغفلون أمر معركة برمتها .. معركة بِعُجَرِها وبُجَرها .. وحلوها ومرها ، وقد يتوهم المؤرخ فيقدم بعض المعارك أو يؤخر ، أما أن يغفل معركة ما ، فذا هو البعيد عن الظن فضلا عن اليقين .

على أن هؤلاء لم يبينوا لنا فارقا كبيراً بين يرموث أجنادين ويرموث

هيروماكس ، فكلتاهما قرب أجنادين ، والثانية أخذت اسمها من النهر لقربها منه ، والأولى لا شك قريبة من النهر أيضاً ولذا سميت باسم الوادى الذى هى فى نهره وهى يرموث المدينة العتيقة ، فليست إحداهما فى فلسطين والثانية فى العراق حتى يكون ، ثم باعث على محاولة توهم التوفيق بين روايات متناقضة ، إذ لا تناقض على الإطلاق ، فالعرب سموا معركة باسم معركة تبوك ودخل ضمن هذه المعارك فتح أيلة ، وليست من مدن تبوك ودومة الجندل ، وليست من مدن تبوك ، فهل يتوهم من ذلك أحد أن معركة تبوك قد تكررت لشمولها أماكن يبعد بعضها عن بعض وأطلق عليها اسم واحد ؟(١)

الى دمشق ...

عرف خالد أن هرقل قد ارسل إلى دمشق حصن الامبراطورية جيشه ذلك البلد الذى يقول فيه (فون كريمر) « إن الامبراطور (ديوكاشيان) قد شيد حصونه تشييداً قوياً رائعاً يريده خطا من خطوط الدفاع الرئيسية عن الامبراطورية الرومانية الشرقية » فلا غرو إذن أن تنسحب جيوش هرقل الباقية لكى تغرى خالداً وتستدرجه لاتباعها وهناك تتكسر موجة النصر ، وتتحطم نصال الظافرين على أبواب دمشق الفولاذية . ذلك ما دار فى خاطرهم ، فذهب العدو يتلمسه فى محاولاته ، واستجاب خالد لهذه الأمانى التى دارت فى رؤوس العدو لأنه يعرف كيف ينتزع الفوز انتزاعا من وراء هذه الجدر الممردة ، كما ينتزعه من الغبار فى معمعان السهول والنجاد ونزلت جيوش العرب ، وطليعة الحضارة على أبواب دمشق . نزل أبو عبيدة ومن معه على باب الجابية غرب المدينة ، وشرحبيل بن حسنة عند باب الفراديس

(١) ومعركة تبوك بالذات قد تكررت ، لأن التواتر انعقد على وقوعها مرتين : إحداهما فى عهد النبى (ص) والأخرى فى خلافة الصديق .

وعمرو بن العاص عند باب توما(١) عند الشمال الشرقى من المدينة ، أما خالد فإنه قد نزل عند الباب الشرقى ، وامتد خط الحصار حتى باب توما متصلا بجيش عمرو ، وعند الباب الشرقى دير كان يدعى « دير الصليب » ويبدو أن هجوم خالد من النقطة التى يقع بها هذا الدير دعا النــاس إلى تسميته « دير خالد » هذا . وقد بعث خالد يزيد بن أبى سفيان يعمل فى تطهير واحتلال الشقة الواقعة بين الباب الصغير وباب كيسان فى الجنوب .

ولقد سبقت المسلمين طلائع من الأنباء كانت أجدى عليهم وأجدر بفوزهم فى كل ميدان ، وللناس شغف كما تعلم باستطلاع كل جديد ، ودولة فتية تبنيها سواعد العرب فى جزيرتهم ، ثم تعمل على تحرير أطرافها وتخومها لهى جديرة بالعنــاية واللحظ ، وقد كان . فإن بطارقة دمشق وقسسها قد تجمعت لديهم أنباء أحوال العرب فى حكمهم وصلحهم وحربهم وكفاحهم ونفاحهم ، مما طمأن إليهم قلوباً هالعة ، ونفوساً خالعة ، وأبصاراً خاشعة ، فزالت عنهم مخاوفهم ، ثم قارنوا بين روم لا تربطهم بهم لحمة ولا عرق وبين عرب لهم بهم رحم مبلولة ودماء موصولة ، وأرومة سامية ، فنشطت بعض العناصر الكبيرة ذات المكان المرموق والخطر فى قومها إلى مد يدها للعرب ، وتبادل بطريق دمشق منصور بن سرجون مع أبى عبيدة الرسائل التمهيدية لعقد الصلح بين الطرفين حتى تم ذلك وفتحت دمشق باب الجابية لأبى

(١) وتقول بعض الروايات إنه عاد إلى فلسطين والراجح أنه كان مع خالد فى فتح دمشق وقد كانت سياسة خالد العسكرية تقوم على التجمع فى مثل هذه المعارك الفاصلة ، ومن ثم يبعد أن يترك خالد قائداً له شأنه كعمرو فى مثل هذه اللحظة الحرجة .

عبيدة ، وقد مرت الحوادث سراعا . هنا يُعقد الصلح وهناك على باب توما يضرب خالد ضرباته القواصم فتنفتح له أبوابها عنوة ، ثم تتدفق جيوش العرب من كل باب حتى يلتقى القائدان فى قلب المدينة قائد الصلح وقائد الحرب ثم يختلف الفريقان هل يكون الصلح هو الفيصل بين العرب ودمشق أم السيف الذى تعنو لحكمه الأبطال إذا كلمتها الهزيمة ، وأخيراً استقر الصلح مناطا فى محل النزاع ، وما كان خالد بقوته يستطيع أن يأخذ منهم أكثر مما أخذ أبو عبيدة بالعهد والذمة ، لقد أخذ العرب بمقتضى هذا العهد من أهل دمشق نصف أموالهم من الدينار والعقار ، أما الأبنية الخاصة التى يأوى إليها الأفراد من أهلها ، ففى أخذ نصفها خلاف بين العلماء ، ويظهر أن مصدر الخلاف كون بعض أهل دمشق من الروم والموالين لهم آثروا الهجرة جهلا منهم بعدالة العرب ورحمتهم ولحقوا بهرقل فى أنطاكية ، فخوت ديارهم واحتلها العرب خلال موجة التعمير التى أقاموها فى البلاد المفتوحة ، فظن بعض المؤرخين أن اقتضاض هذه الدور وأخذ العرب لها كان منصوصا عليه فى الصلح ، وهو ظن لا يسوغه ترجيحنا لهجرة بعض أهل دمشق من من تلقاء أنفسهم ، ونزول العرب بها من تلقاء أنفسهم أيضا .

وانتهت بمعركة دمشق التى دام حصارها ستة أشهر معارك خالد بالشام والعراق على رأى فريق ويرى آخرون أن معركة دمشق كانت سنة ١٤ هـ وأن معركة اليرموك - وهى التى أتينا على وصفها - وقعت سنة ١٥ هـ وأنها - أى اليرموك - كانت آخر معاركه ، على أن الذى سقناه هو الراجح عند أكثر مؤرخى العرب ، ويؤيده بعض المستشرقين .

ويأتى بعد هذا دور خالد وعمر بن الخطاب ، فإن الذى ذكرناه فى فصل النقود التى ضربها خالد ، وقلنا إنه هو السبب الحقيقى — وإن خفى أمره على كثيرين — فى عزل عمر لخالد من الإمارة ، وسواء أكان عزله فى خلال معركة أو بين يديها أو بعد نهايتها ، فإن هذه النقود المضروبة لدليل مادى على ما ذهبنا إليه .

والمهم فى كل هذا أن خالداً قد ساهم فى بناء الدولة العربية بعناصرها من الفتح والانتصار والتعمير والأخذ بضروب من فنون غير العرب وحضارتهم ، دون تزمت ولا تحفظ ولا ارتباك .

الرحيل الاخير

على خالد تبكى البواكى

« عمر بن الخطاب »

وفى مدينة حمص التى شهدت بعض آيات هذه العبقرية الحية شاءت الأقدار أن يكون فى إحدى دورها فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة وهو فى الخامسة والأربعين من عمره قد بات البطل على فراشه يحس كأن نهايته وشيكة أن تحم ، فقال فى تحسر قولته الخالدة :

« لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى ، وما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس ، والسماء تهلنى بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار ؛ ولقد أدركت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

* * *

وأصبح الناس وهم لا يصدقون ما يسمعون : « هل مات البطل » ؟ وهل : « أغمد السيف » ؟ وهل : « خبت هذه الجذوة المتقدة من العبقرية والنبوغ » ؟ .

أجل ...

* * *

وذهب نسوة من بنات مخزوم إلى قبر خالد يسفحن الدمع غزيراً على ليث العرب ، وسيف الله ، وكان بعض من نشج بالبكاء على خالد طويلا أراد أن ينهى عن الاستطالة على قضاء الله بطول البكاء ، فنهاهن .

وعلم الفاروق عمر بن الخطاب فقال :

ـ ما على نساء الوليد أن يسفحن على خالد دموعا فعلى خالد تبكى البواكى

وسمع من يذكر خالداً فقال :

رحم الله خالداً

شكر واجب

للسيد الأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم المحامى وعضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة أومنيبوس الشرق ، الذى كان دافعاً لى فى عام ١٩٤٣ على أن أخط هذا الكتاب على صفحات مجلة الجامعة الإسلامية ، والأخ الصديق الأستاذ على الجبلاطى الذى شجعنى على إعادة طبعه ، وكان لآرائه السديدة أثر فى إخراجه على هذا النحو ، والأخ الفاضل الحاج على حسن الذى تفضل بتجميل الإهداء بخطه اللؤلؤى ، والأستاذ مروان والفنان منير محمود عرجان اللذين أتما تنسيق الغلاف أولهما بخطه والثانى برسمه ، والأستاذ السيد رجب خليل مدير مكتب الجامعات الذى تكفل بإتمام طبعه فى مطبعته ، وكان له ولمعاونيه من رجال مطبعته من سعة الصدر وحسن المعاملة مايستحقون عليه الشكران . أشكرهم جميعاً . . إخواناً أوفياء وخلاناً شرفاء ، الله يتولى حسن الجزاء ؟

المؤلف

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة